قصة بوذا

تأليف

عبد العزيز الزكى

الكتاب: قصة بوذا

الكاتب: عبد العزيز الزكى

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

الزكى ، عبد العزيز
قصة بوذا / عبد العزيز الزكى
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٩٧ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٩ – ٦٩٠ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٦٦٣ / ٢٠١٨

قصة بوذا

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تصدير

يعيب حياتنا الثقافية في الوقت الحاضر أنها تهمل الثقافات الشرقية وأقصد بالثقافة الشرقية الروحية التي نبعت من مصر وإيران والهند والصين؛ بينما تتجه بكل قوانا الواعية إلى الثقافة الغربية، وتسير في ركابها خشية أن تتخلف عن موكب الحضارة.

ويمكن أن نجد لنا عذراً في القرن الماضي لأخذنا من الثقافة الغربية إحياء حياتنا الفكرية التي أخمدها الاستعمار التركي، ولكن بعد أن أخذنا من الغرب أكثر من قرن ونصف قرن يجب أن نعتمد على مقوماتنا العقلية في نهضة حياتنا الفكرية، وإننا يجب أن نتوقف عن الأخذ من الغرب ونبدأ في خلق ما يعبر عن أعماق روحنا. فإذا كان لنا أ، نأخذ العلم من الغرب فإن جميع الشعوب منذ الأزل نتعاون على تقدم العلم وتطوره وإن العلم ليس له وطن، وليس الكشف عن أسرار الطبيعة يخص الشرق دون الغرب أو يهم الغرب دون الشرق، وإنما يشترك الجميع في البحث عن كنه كل ما يحيط الإنسان من حياة وظاهرات وكلها واحدة لا تتغير في كل زمان ومكان.

وما ينطبق على العلم لا ينطبق على الفن، فإن لكل وطن فنه الخاص الذي يتميز به لأنه يعبر عن خلجات روح هذا الوطن بالذات. فإذا كان

لنا أن نتذوق فنون مختلف الأمم ونطرب لها بما تبعثه فينا من مشاعر، فإنه لا يحق لنا أن نقلدها لأن القوى الخالقة التي ابتدعها تخالف قوانا الخالقة، وإذا ما ألزمنا أنفسنا بمحاكاة فنون الغرب وآدابه فإننا لن نصل إلى مرتبة الابتكار وسنظل أبداً الآبد من مقلدين، إلا إذا استوحينا روحنا الخالقة فإننا عندئذ يمكن أن نصل إلى مرتبة الابتكار ولذلك يجب أن نحيي قوانا الخالقة حتى نسير في طريق الابتكار والابداع وأحسب أن غرس الثقافة الشرقية في عقولنا يعتبر من العوامل الرئيسية لبعث قوانا الخالق الخامدة.

ولمن ما لنا نهرع بعقولنا وقلوبنا نحو الغرب دون الشرق...! وما لنا نتهافت على ثقافة الشرق...! وما لنا نبحث عن مثلنا العليا في الحضارة الغربية دون الحضارة الشرقية...! وما لنا لا نمل استيراد كل ما يستحدثه الغرب من فنون وآداب وفلسفات ولا نلقى بالاً إلى ما يستحدثه الشرق...! ما لنا نطمع في أن نصل بمحاكاة الغرب إلى ما وصل إليه من تقدم ورقي..! ولكن كيف نتطلع إلى قوة الفكر وسلطان الثقافة ونحن عبيد الغرب نستجدي ثقافاته...! لم نمعن في تشديد وثاق روحنا بأغلال الثقافة الغربية ونحول دون انطلاقها في عالم الروح الرحيب الذي نشأت فيه منذ فجر التاريخ وتعودت الحياة بين جنباته بمرور الزمن...!

إننا نأخذ من الغرب منذ أواخر القرن الثامن عشر، ولكن ما زال فكرنا على ما هو عليه من تخلف وقصور. ألا يقنعنا ذلك بأن أخذنا من الثقافات ومحاكاتها مهما طال لم يمكننا من خلق ثقافة أصيلة، وأنه آن الأوان لكي نعمل على أن نتحرر من سيطرة الثقافة الغربية على حياتنا

الفكرية كما تحررنا من السيطرة الغربية على حياتنا السياسية والاقتصادية والعسكرية...

لا شك في أن مسئولية مغالاتنا في الأخذ من الثقافة الغربية يقع على عاتق كبار رجال الفكر في العالم العربي الذين أتاحت لهم الفرص توجيه مستقبل الثقافة في الوطن العربي خلال الأجيال الحديثة.

ويهمنا أن نذكر الآن رأيا قديماً للدكتور طه حسين عرضه منذ أكثر من نصف قرن في مستهل كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" ويقوم هذا الرأي في أن العقلية المصرية أقرب إلى العقلية اليونانية منها إلى العقلية الإيرانية أو العقلية الهندية أو العقلية الصينية، مستدلاً على ذلك بأنه كان هناك علاقات تجارية وثقافية بين مصر واليونان تبعد في القدم قدم حضارة كل منهما، كما يطلان على بحر واحد هو البحر الأبيض المتوسط؛ بينما لم تقم إلا علاقات سطحية بين مصر والهند والصين، ولما غزا الفرس مصر كره المصريون حكمهم ورحبوا بدخول الإسكندر المقدوني لمصر ليخلصهم من ظلم الفرس وجورهم هذا فضلاً عن أنه كان لتراث اليونان أثر واضح في نهضة الحضارة الإسلامية ورقيها. وانتهى الدكتور طه حسين من كل ذلك إلى أنه إذا كانت هناك علاقات جوار ومودة وتعاون، وروابط تجارية، وتبادل ثقافي بين مصر واليونان من قديم الزمن؛ وأن تراث الفكر الإغريقي استنهض همم العرب والمسلمين لتكوين حضارتهم فلا يوجد ما يمنع في الوقت الحاضر من أن تتجه عقولنا نحو الغرب ونستعين بثقافاته في بعث نهضتنا الفكرية...

فكل الأسس التي اعتمد عليها الدكتور طه حسين في تبرير ضرورة أخذنا من الغرب هو أن هناك روابط جغرافية وعلاقات تجارية وصلات ثقافية منذ القدم بين مصر واليونان، وأنه كان للتراث الإغريقي أثر كبير على الحياة الثقافية في الإسلام؛ ولكنه لم يذكر إذا ما كان هناك تجانس فكري بين العقلية الفرعونية والعقلية الإغريقية، ولم يوضح لنا نوع أثر التراث اليوناني على العرب والمسلمين وإذا كان من النوع الذي يبعث على طاقات خالقة أو من النوع الذي يحث على السير في فلكه دون أن يأتي بجديد...

فلو تأملنا في تاريخ الحضارة اليونانية نجد أن مقدماتها الأساسية تقوم على دعائم أرضية مادية تهتم بالأرض قبل السماء، بل تسخر السماء من أجل الأرض، تعطى للعقل كل السلطة للتصرف في مختلف شئون الحياة، ولا تكاد تعترف بالروح أو تقر بحدسها، ولا تؤمن بقردة الحياة الزوجية على إسعاد البشر، ولا تنظر إلى الآلهة إلا خلال منظار الأرض فلا تري فيهم أكثر من بشر وكل ما يمتازون به عن الإنسان أنه يجري فيهم دماء تكسبهم الخلود. وأن ما توصلت إليه الحضارة اليونانية من علوم كان الباعث عليها خدمة الإنسان وتهدف إلى حفظ حياته على الأرض أو تهيئة المتعة والرفاهية والرخاء في حاتنا الحاضرة؛ وأن ما عرفته من فنون لا تعبر إلا عن الجمال المادي ولا تهتم إلا بالجمال الأرض. كما كانت نزعات الأنانية وحب التملك والرغبة في التوسع والسيطرة هي التي تحرك تاريخ الحضارة الإغريقية وتسير حياة اليونانين.

بينما لو تأملنا تاريخ الحضارات الشرقية كالحضارة الفرعونية والحضارة الإيرانية والحضارة الهندية والحضارة الصينية نجد أن مقوماتها الأساسية تغاير مقومات الحضارة الإغريقية من جميع الوجوه؛ لأن الحضارات الشرقية تهتم بالسماء قبل الأرض، وتنشد الخلاص من الأرض في سبيل الوصول إلى السماء، تعطى للروح كل السيطرة على شتى نواحي حياتها، تؤمن بالأنبياء وتثق في وحي السماء، شخرت العلوم والفنون والآداب لخدمة السماء، ولم تتورع عن أن تضحي بكل القيم الأرضية في سبيل الحياة في السماء.

فإذا ما أخذنا نبحث عن مقومات الحضارة الفرعونية[١] والبواعث التي حفزت قدماء المصريين على خلق مدينتهم، نجد أن إيمان المصري القديم بالبعث دعاه إلى خلق كل ما عرف عن الفراعنة من علوم وفنون فالرغبة في بناء أماكن قوية متينة تصون الجسد من التلف حتي يمكن أن تعود إليه الروح من جديد ويضمن الإنسان الحياة في العالم الثاني، حفز المصريين على بناء الأهرامات وهي تحتاج إلى معرفة دقيقة بالحساب والهندسة والفن المعماري فتقدمت هذه العلوم. وإمعان المصريين في المحافظة على الجسد أداهم إلى اختراع فن التحنيط وهو عملية لا يمكن أن يتقنها إلا من يرع في تركيب كثير من العقاقير، وعرف. وضع جميع أعضاء الجسم ووظيفة كل عضو منها، فكان التحنيط مدعاة لتقدم علم الطب وفن الجراحة وصناعة الأدوية والعقاقير. ولقد أخذ الفراعنة حذرهم، ولم يثقوا

(١) حول الفكر الإسلامي: فصل: إحياء مقوماتنا الروحية. للمؤلف تحت الطبع.

كل الثقة في قدرة أهراماهم في صون أجسادهم، وشكوا في مهاراهم في التحنيط وحسبوا حساباً لم قد يعتري الجسد من تلف فوضعوا في المقابر تماثيل عديدة للمست حتى إذا ما انحل الجسد حلت الروح في أحد هذه التماثيل، فتقدم بذلك فن النحت. وما بنيت المعابد إلا للصلاة عن روح الميت طلباً للمغفرة ومساعدة لها في رحلتها الشاقة إلى العالم الآخر. وما زينت المقابر والمعابد بالنقوش الدينية إلا لتعين الروح في توخي أيسر السبل في رحلتها إلى الحياة الثانية. فكانت عقيدة البعث هي الباعث الأول لوضع كثير من العلوم والفنون، بل هي الدعامة الأساسية التي قامت عليها الحضارة الفرعونية. وعقيدة البعث عقيدة روحية أولاً وقبل كل شيء تؤمن بحياة أخرى بعد الموت، استولت على عقول قدماء المصريين وحثتهم على أن يهبوا حياهم الدنيوية في سبيل الاستعداد للحياة الأخرى، وعلى أن يسخروا مواهبهم في المحافظة على الجسد حتى لا يعتريه الفساد فلا تجد الروح مستقرها في العالم الآخر.

فالحضارة الفرعونية صدرت عن مقومات روحية، ونمت وترعرعت في أحضان مقومات روحية، بخلاف الحضارة الإغريقية. فإذا كان هناك علاقات تجارية وثقافية وروابط جوار بين مصر واليونان فإن هناك كذلك تفاوتاً كبيراً بين مقومات الحضارة الفرعونية والحضارة الإغريقية بعكس الحال مع الحضارة الإيرانية. فبالرغم من أن المصريين كرهوا حكم الفرس الظالم فلا يمكننا أن ننكر أن الحضارة الإيرانية اتخذت من تعاليم زرادشت الروحية موجهاً ومرشداً، وهي تعاليم تقوم على أن هناك صراعاً بين الخير والشر، وأن هذا الصراع سيستمر حتى يقضي الخير على الشر ويعم الخير

الحياة في النهاية. ولقد سيطرت هذه التعاليم على حياة الإيرانيين الفكرية والاجتماعية، وأوحت إليهم بروائع الفن والأدب، وحثتهم على العمل في سبيل الخير بالسعي في طلب التقدم لأن في التقدم قضاء على الشر وانتشاراً للخير، فظهرت العلوم لتدعيم أسس الخير، ونِأت الحضارة الإيرانية وتطورت بفضل الرغبة في تحقيق الخير ومحاربة الشر.

ولا تختلف الحضارة الهندية عن الحضارة الفرعونية والحضارة الإيرانية من حيث أن مقوماتها الأساسية مقومات روحية بحتة. فإن ديانات الهند التي تعتقد في كمون الخالق في كل شيء في الوجود، وفي فضل مجاهدة اليوجا في تحقيق الطهارة الروحية، وفي تعاليم بوذا وجاني التقشفية الأخلاقية، خلقت الحياة الهندية خلقاً، فهي وراء كل تطور وكل نهضة. فلقد ظهر في غابات الهند وجبالها أوائل الزهاد والنساك، وأبدع الهنود الكثير من الفنون والعلوم من أجل خدمة التعاليم الفيدية والبرهمانية والجانية والبوذية والهندوكية، وهي ديانات كان لها دخا كبير في[٢] تنظيم شتى مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية.

أما عن الحضارة الصينية فمقوماتها كذلك مقومات روحية. فإن الشعب الصيني قد آمن بقوة بالديانة الكنفشيوسية التي تنشد إقامة حكم صالح على أساس أن تكون الأسرة خلية المجتمع الأولى صالحة، وأن تتحكم الأخلاق الفاضلة في حياة الأسرة وفي أساليب حكم البلاد حتى يمكن أن يعيش البشر في سعادة روحية حقة. فلا نعجب إذا كان للتعاليم

(٢) حول الفكر الإسلامي: فصل: عقيدة تناسخ الأرواح. للمؤلف تحت الطبع..

الكنفشيوسية التي لا تكاد تؤمن بإله وتثق في القيم الأخلاقية الفاضلة كل الثقة هي التي وجهت سير أحداث تاريخ الصين، وألهمت الصينيين بمختلف الفنون والآداب الفلسفات. وحثتهم على وضع كثير من العلوم التي تفتخر بها الحضارة الصينية.

وهكذا قامت حضارات مصر وإيران والهند والصين على أسس روحية وكانت التعاليم الروحية هي التي لها الفضل الأول في نشأتها وتطورها وتقدمها وذلك كله يتبين أن هناك اتجاهاً عاماً مشتركاً بين مقومات الأمم الشرقية وأن هذه المقومات المشتركة هي مقومات روحية، وأنها هي التي تحفز على النهوض والخلق. وذلك يشهد على أن مصر أقرب بروحها إلى إيران والهند والصين منها إلى اليونان. فإن لم يذكر التاريخ القديم أنه كان هناك علاقات تجارية واسعة أو تبادل ثقافي مستمر بين مصر والهند والصين، وإن لم توجد روابط جوار بينها وبين مصر فلا يجب أن نغفل عن أن التاريخ لم يهمل في أن ينبهنا إلى أن الحضارات الشرقية جميعاً قامت على نزعات روحية متشابهة متجانسة.

ويخبرنا التاريخ الإسلامي بأن الحضارة العربية قامت على تعاليم القرآن الروحية. فإن حب المسلمين في المحافظة على سلامة القرآن حفزهم إلى تدوينه وتدوين غيره من تراث العرب، وإلى وضع أصول قواعد النحو العربي خوفاً من اللحن، وإلى تفسير القرآن والحديث فنشأت علوم التفسير والبلاغة والتاريخ. وما سنه القرآن من شرائع دفع إلى وضع أصول علم الفقه، ولما أخذت الحركات المناهضة للإسلام تشتد ظهر علم الكلام

ليدافع عن معتقدات الإسلام. ولم يتقدم علم الحساب بين العرب إلا لأنهم احتاجوا إليه في علم الفرائض الذي يحدد نسبة ميراث كل فرد حسب الشريعة الإسلامية. ولم يقبل المسلمون على دراسة الفلك في أول الأمر إلا لمعرفة مواقيت الصلاة والصوم والحج. وكان الإسلام على الدوام يعاون على تقدم العلوم التي تخدمه، ولم يرتق من العلوم والفنون إلا ما كان له علاقة وثيقة بالإسلام والقرآن.

وهكذا نشأت الحضارة الإسلامية في أحضان تعاليم روحية كذلك، وكان يمكن أن ترتقي وتتقدم تحت رعاية نفس التعاليم الروحية، ولكن لما أقبل المسلمون على ترجمة التراث اليوناني أغرقوا حياتهم الفكرية الناشئة بأفكار يونانية كان قد تم نضجها فاستطاعت أن تؤثر فيها تأثيراً كبيراً وتسيطر عليها في آخر الأمر. ولا يمكننا أن ننكر فضل التراث اليوناني في أنه عاون على صياغة ما توصل إليه العرب من علوم في قالب علمي دقيق مما ساعد هذه العلوم على أن تسير بعض الخطوات السريعة إلى الأمام. إلا أنه سرعان ما توقف تقدم هذه العلوم مما أدى بها في النهاية إلى نوع من الجمود العقيم الذي أعجزها عن التقدم والحركة.

إن المتتبع لتطور علوم النحو والبلاغة والفقه والكلام والفلسفة والتصوف[٣] يدهش من كيف بدأت هذه العلوم بداية طيبة، وكيف تعثر تطورها حتى تدهورت وما زال الفكر العربي في عنفوانه. إذا تاهت في ضخم الثقافة الإغريقية فضلت الطريق الذي يهديها إلى الخلق والابتكار

(٣) حول الفكر الإسلامي: فصل: جناية التراث اليوناني على الفكر العربي، المؤلف تحت الطبع.

بينما لو تركت هذه العلوم وشأنها تتطور تطورها الطبيعي لتمكنت بولو بعد طول عناء– من أن تسير إلى آخر مداها وتعمل إلى درجات رفيعة من الخلق والإبداع، ولكن اندفاع العرب في ترجمة التراث اليوناني وانكبابهم على دراسته والنقل عنه حتى سارت أفكاره في دمائهم وعاشت آراؤه في قلوبهم واستقرت مذاهبه في عقولهم، جعل كتاباتهم تردد نفس كتابات الإغريق في أسلوب أو آخر ولكن لا تختلف عنها في شيء ولا تخرج عن أنها محاولات للتوفيق بين تعاليم القرآن والأفكار اليونانية أو محاولات لمحاكاة تراث اليونان، حتى أصبح الخروج من نطاقها يكاد يكون أمراً مستحيلاً...

ومن الغريب حقاً أن كل مفكر إسلامي حاول أن يأتي بجديد ذهب صوته أدراج الرياح فإن محاولات عبد القاهر الجرجاني في خلق مذهب جديد في النقد تاهت بين الأفكار اليونانية وضاعت بين الآراء التي لم ترغب في أن تتخلى عن محاكاة الفكر اليوناني. ولذلك لم تجد لآراء الجرجاني الجديدة من يتعهدها من بعده. وإن ابن سينا نفسه أحس بأنه يعيش في دوامة من النظريات اليونانية، وشعر بما في ذلك من نقص يعيب الحياة الفكرية في الإسلام ومن خطر يهدد الثقافة العربية. فإذا به يعلن في مقدمة كتاب "حكمة الإشراف" أنه يضع نظريات جديدة تتمشى مع الروح الشرقية، ولكنه لم يستطع أن يأتي بجديد، واستمرت كتاباته تسير على نهج اليونان تحاكي أفكارهم أو توفق بين نظرياتهم. وذلك لأنه انكب على دراسة الثقافة اليونانية حتى سارت في دمائه وعاشت في قلبه فاستولت على عقله ولم يستطع التحرر منها، وبالتالي عجز عن الابتكار

بالرغم من رغبته القوية في أن يسع فلسفة عربية إسلامية شرقية النزعات لا تسير في ركاب الفلسفة اليونانية؛ ولم يكن ذلك صعباً عليه ولكن سيطرة الثقافة اليونانية على الفكر الإسلامي عاقت نابغة عن الخلق وقيدت نشاطه وجمدت مواهبه وألزمته بأن يحوم حولها يردد ما تردد بالرغم منه.

وذلك يثبت أن تجربة الثقافة العربية في الأخذ من التراث اليوناني فشلت في تهيئة عقلية عربية تهيئة تبعثها على الخلق والإبداع، وذلك لسبب واضح بسيط هو أن مقومات الثقافة اليونانية المادية العقلية تختلف عن مقومات الثقافة العربية الروحية الحدسية، ونظراً لأن الثقافة اليونانية كان قد تم تطورها وبلغت آخر درجاتها في الرقي عندما وصلت إلى العرب الذين كانوا في بداية نشاطهم الثقافي، فتمكنت الثقافة اليونانية بتفوقها أن تسيطر على الثقافة العربية الناشئة وتجبرها على السير في ركابها، ولما سارت وراءها سارت في طريق يختلف كل الاختلاف عن طريقها الروحي الحدسي، وحينما شعرت بخطئها وحاولت أن تتخلص من قيود الثقافة اليونانية كانت الفرصة قد ضاعت بعد أن تسمم جو الثقافة الإسلامية تسمماً تاماً بالأفكار اليونانية.

فلم يكن أثر التراث اليوناني على الفكر العربي في صالح الثقافة العربية ولا يمكن أن تتخذ من تجربة العرب بتأثرهم بالتراث اليوناني مثالاً يحتذى أو نرى فيه القدوة الصالحة لأن هذه التجربة لم تصل بالعقلية الغربية إلى مرتبة الخلق وإنما أوقفتها عند حد المحاكاة.

* * *

أحسب أن التاريخ يشهد ضد كل من يدعي أن العقلية المصرية أو العقلية العربية أقرب إلى الغرب منها إلى الشرق فإن مقومات الحضارة الفرعونية والحضارة العربية هي نفس مقومات الحضارة الشرقية التي تختلف اختلافاً بيناً عن الحضارة اليونانية، وأن أثر التراث اليوناني في الفكر الإسلامي لم يكن أثراً ناجحاً بحيث نحب أن تكرره مرة أخرى في وقتنا الحاضر؛ لأنه كان من الأسباب الرئيسية في شل العقلية العربية عن الخلق والإبداع. ولذلك لا يجب أن نثق في الثقافة الغربية الحاضرة أو نعتقد أنه يمكنها أن تساعد العرب على بعث نهضة ثقافية خالقة.

إننا نأخذ من الغرب منذ أن وطأت قدماً نابليون أرض مصر، ولكن ما زلنا نشعر بالقصور والتخلف في ميدان الثقافة والفكر. ويرى الدكتور مُحَمَّد مندور أن ذلك يرجع إلى أن ما أخذناه من الغرب ما زال أقل من القليل، وطالب العرب بأن يكثروا من الاطلاع على شتى الآداب الغربية وامتصاص مختلف اتجاهاتها حتى تسير في دمائنا وتعيش في نفوسنا وعقولنا وأن نحاكي ثقافات الغرب محاكاة مستنيرة، وأن نتخذ من هذه المحاكاة سبيلاً للخلق. ولكن تجربة الثقافة الإسلامية في أخذها من التراث اليوناني ما زالت ماثلة في الأذهان، وأن أخذنا من الغرب في الوقت الحاضر لن يوصلنا إلى مدى أبعد مما وصل إليه أسلافنا العرب في العصور الإسلامية.

وإذا أردنا أن نحاكي الغرب حقاً يجب أن نحاكيه في أصول منهجه الذي أدى به إلى النبوغ. يجب أن نقلده في الخلق ولا نقلده في مخلوقاته– لا شك في أن مقومات الثقافة اليونانية مقومات أصيلة انبعثت من أعماق الروح اليونانية نفسها، مثلها في ذلك مثل مقومات الثقافات الفرعونية والإيرانية والهندية والصينية التي انبعثت من أعماق روح شعوبها. فلماذا سيطرت التعاليم المسيحية

الروحية الحدسية الإيمانية على الحياة الثقافية في الغرب خلال القرون الوسطى أصابها الركود والجمود. ولما تنبه الغرب إلى ركوده وجموده أخذ يبحث عن ثقافة غير الثقافة التي تستمد أصولها من تعاليم الديانة المسيحية الروحية أو تحاكيها، فاتجه إلى الثقافة الإسلامية على اعتبار أنها كانت ثقافة العصر الراقية، فأدرك أنها تأخذ من الثقافة اليونانية فأخذ يبحث عن الثقافة اليونانية في مصادرها الأولى. ولما توسع في الاطلاع عليها أحس بأن هناك نوعاً من التجارب والمشاركة بين روحه وبين مقومات الثقافة اليونانية التي هي مقومات مادية بشرية عقلية، فلم يتورع عن أن يدير وجهه عن الثقافة العربية، ويبذل كل ما يستطيع من جهد لتحرير فكره من سيطرة التعاليم المسيحية الروحية الحدسية الإيمانية. فإذا به يحطم سطوة الكنيسة الدينية على حياته العقلية، ويطلق لفكرة العنان ويترك له مطلق الحرية في توجيه حياته. فإذا به يشحذ مواهبه البشرية ويتخلى غير آسف عن القيم الروحية التي فرضتها على المسيحية عندما وجد أنها لا تتفق مع اتجاهاته المادية البشرية العقلية وتعوق تقدمه، فانكب على التراث اليوناني لما أحس بأنه ينعش فكره ويحضه على الخلق والابداع. هذا هو الطريق الذي سار فيه الغرب حتى بلغ ما بلع من رقي وتقدم، وإننا إذا أردنا أن نصل إلى ما وصل إليه يجب أن نسير في نفس الطريق...

وإذا أردنا أن نسير في طريق المجد حقاً يجب أن نستفيد من تجاربنا في الماضي البعيد والقريب وأن نجعل حياتنا الفكرية الحاضرة امتداداً لحياتنا الفكرية السابقة بتقوية النوازع الروحية في النفوس. لأن الفترات التي ضعف فيها الوازع الروحي في النفوس سواء في العصور الفرعونية أو في العصور العربية لم تتدهور الحياة الفكرية فحسب وإنما تعرضت فيها البلاد للتفكك والفتح ونهب الغزاة. وما سقطت مصر وبقية الدول العربية في أيدي المستعمرين إلا بسبب خمول

القوى الروحية وجمودها، مما ساعد المستعمر على السيطرة على البلاد ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً. ولكن شدة وطأة الاستعمار نبه تلك القوى الروحية الخاملة فقام المصريون والعرب يقاومونه في كل مكان؛ فتسربت العواطف الروحية إلى المشاعر الوطنية واختلطت بها اختلاطاً أدى إلى تفاعلها واندماجها اندماجاً خلق منها طاقة حيوية نبهت المستعمر إلى خطر مقومات العرب الروحية، فأخذ يرميهم من حين لأخر بالتعصب ليطفئ شعلة حماسهم في طلب الحرية والاستقلال ويظهرهم أمام العالمين بمظهر المتأخرين الرجعيين، ثم لوح لهم بثقافاته الغربية ليشغلهم عن إحياء مقوماتهم الروحية بالأخذ من الغرب، ويغريهم بالجري وراء مدنياته ليلهيهم بتحصيل ثقافاته عن العناية بروحهم، ويوهمهم بأن رقيهم وتقدمهم هو في محاكاة الغرب، وأن ما يعانيه العرب من تأخر وضعف لا يرجع إلا لتعصبهم ورجعيتهم. وهدف المستعمر من وراء ذلك إلى زهق الروح العربية لتنعدم مقاومة الأمة العربية لاستعماره، أو لتخف حدتها على الأقل نوعاً ما إلى المستعمر، فلا ترى غضاضة في أن تعتبر ثقافاته هي المثل الأعلى الذي يجب أن تحتذ به، فلا تثور على حكمه أو تستهين بقدرة الغرب على مساعدة العرب في نهضتهم الثقافية، ويشعر في النهاية أنه بدون عزن الغرب ومحاكاة ثقافاته لم يحقق تلك النهضة التي ينشدها. فأقبل الكثير منا على ثقافة الغرب، ومع ذلك ما زلنا نعاني جموداً فكرياً يكاد يزهق روحنا، وما زلنا نشكو من تخلفنا الثقافي، وأخذ الشعور بالنقص يتسرب إلى نفوسنا شيئاً فشيئاً يلهب عواطفنا ويخزيها، ويغمر عقولنا بهواجس تدفعنا دفعاً أعمى وراء حضارة الغرب ظناً بأنه كلما زاد محصول ما نأخذه من الغرب ارتفع مستوى إنسانيتها ورقينا، ونستطيع بما أخذناه أن نخلق شيئاً بل أشياء. وإذا ما عجزنا عن الخلق بعد ذلك لا نتورع عن أن نتهم أنفسنا بالتقصير في الأخذ من الغرب، فنبالغ في محاكاة ثقافاته مبالغة رذيلة. ولا ننتبه إلى أن الحياة في جو

تيارات الثقافة الغربية لا يلائم طبيعة ميولنا الفكرية ويصرفها للجمع والتحصيل؛ لأن الثقافة الغربية لا تملك إلا أن تثقف عقولنا وتزودنا بمعارف متنوعة تجعل منها مكتبات حية متنقلة لا تملك لنفسها نفعاً أو ضراً. لأن الثقافة الغربية لا تقدر أن ترعى عقولنا أو تنميتها حتى تنضج فتستفيد وتفيد وتخلق وتبتكر. فلم نعاند ونكابر ونتمادى في الأخذ من ثقافة مقوماتها غريبة عن روحنا، فضلاً عن أن هذا الأخذ لن يأتي بالثمرة المرجوة. ولذلك يجب أن نمعن النظر في تاريخنا البعيد والقريب لنتعلم من تجارب أسلافنا ونسترشد بخبراتهم الثقافية في بعث نهضتنا الفكرية. لقد قال التاريخ كلمته وشهد بأن العقلية العربية لا تنتج نتاجاً فذاً فريداً في نوعه إلا إذا محت وجودها في أفكار روحية، ولا تستنبط أو تخلق عن يسر وبساطة إلا إذا استوحت روحها الأصيلة.

وإذا أردنا أن نستوحي روحنا يجب أن نوقظ هذه الروح بعد طول سباتها العميق. وما دامت أسس مقومات هذه الروح هي نفس مقومات الروح الشرقية، فأحسب إننا لو اتجهنا بعقولنا نحو الشرق، وأتحنا لها من الفرص ما يجعلها تعيش في الأفكار الشرقية فقد يساعد ذلك على أن تفوق روحنا من غفوتنا وتتنبه إلى أصول مقوماتها وتسير في طريق المجد. وأحسب إنه أخذنا في الاطلاع على الثقافات الشرقية لا شك في أن نفوسنا سترتاح إليها كل الارتياح، وتتجاوب معها تجاوباً تاماً وتألفها بسرعة عجيبة وتندكي فيها بكل كيانها وتشاركها مشاركة عميقة مدركة أنها نتاج فكر ليس غريباً عنها وتشعر بأنه منها وهي منه.

ولقد كان أول من استجاب إلى المشاعر الشرقية هو الرئيس جمال عبد الناصر مع أنه رجل ثورة وسياسة وليس برجل ثقافة وفكر. لقد تعودنا أن يكون رجال الفكر هم أول من يعبر عن روح الشعب ويطالب بتدعيم مقوماته وتنقية

اتجاهاته، على سبيل المثال الرئيس جمال عبد الناصر سبق بتفكيره السياسي جميع رجال الفكر في العالم العربي. ولا عجب في ذلك فإن الرئيس جمال عبد الناصر هو رمز الأمة العربية، ولقد أثبتت سياسته أنه يعبر تعبيراً صادقاً قوياً عن مقومات العرب وآمالهم الروحية. لقد حرر مصر من المستعمر الغاصب ويحارب الاستعمار في كل ركن من أركان الدول العربية وفي أفريقية وفي أسيا، بينما لم يستطع رجال الفكر إلى الآن تحرير العقول من غزو الثقافة الغربية. بل إن الرئيس جمال عبد الناصر لا يمل من تكرار القول بأن الأفكار التي يجب أن تسود منطقة الشرق الأوسط يجب أولاً وقبل كل شيء أن تنبعث من نفس المنطقة ولا تصدر إليها من الخارج وكذلك نحن ننادي مع رئيسنا بأن الآراء التي يجب أن تسود حياتنا الفكرية يجب أن تنبعث من أعماق قلوبنا وأغوار روحنا ولا تصدر إلينا من الخارج. لقد آمن الرئيس جمال عبد الناصر بأهمية التعاون مع الشعوب الشرقية في خلق حضارة شرقية تقف في وجه الحضارة الغربية، فإذا به يتجه نحو إندونيسيا والهند، ويلعب دوراً رئيسياً في دعم مؤتمر باندونج الذي نادى بالحياد الإيجابي والتعايش السلمي وحق تقرير المصير وهي مبادئ إنسانية روحية تحترم الأخلاق الفاضلة. ولقد نجح الرئيس جمال عبد الناصر. نجاحاً كبيراً في تعاونه مع الشعوب الإفريقية والآسيوية وفي توطيد دعائم هذه المبادئ الانسانية الروحية في الحياة العالمية بحثه على عقد مؤتمرات من حين لآخر تنبه الأذهان للقضايا الإنسانية التي يدافع عنها، حتى أصبحت دول العالم أجمع تنظر إلى هذه القضايا بعين الاعتبار، مما يدل على أن معالم روحنا الشرقية ابتدأت تتضح في المضمار السياسي وتلفت الأنظار إلى أهمية المقومات الروحية في تحقيق مجتمع إنساني يتمتع بالسلام والاستقرار والطمأنينة. ولقد كان من الواجب أن يتزعم رجال الفكر في العالم العربي هذه الحركة ويمهدوا طرق تنفيذها لرجال السياسة.

لقد صادق الرئيس جمال عبد الناصر جميع قادة الشرق في آسيا وفي إفريقية ذلك لأنه يعتقد أن مصل هذه الصداقة تعتبر من أهم الوسائل الطيبة التي توثق علاقات الأمم الشرقية ببعضها بعضاً، وتعمل على تعاونها في الرقي والتقدم في شتى ميادين الإصلاح. ولكن لا نكاد نعرف أن هناك صداقات قوية بين رجال الفكر في العالم العربي ورجال الفكر في الدول الشرقية بالرغم من أهميتها في توطيد الروابط الثقافية بين العرب والشرق. ومع ذلك نعرف أن هناك صداقات وصداقات بين رجال الفكر عندنا وبين رجال الفكر عند الغرب. ولا أكون مجانباً للصواب إذا زعمت أن رجال الفكر في الغرب هم الذين سعوا سعياً وراء هذه الصداقات لأنهم يعلمون عظم أثرها: في توطيد دعائم الثقافة الغربية بين العرب فلا نعجب إذا لم يوجد في العالم العربي أساتذة جامعيون تخصصوا في اللغات الشرقية من سنكريتية وبالية وصينية مع أننا نعرف أن هناك عشرات الأساتذة الذين تخصصوا في اللغة اليونانية القديمة واللغة اللاتينية. ولا نكاد نعرف أن هناك أستاذاً تخصص في ناحية من نواحي الفكر الشرقي القديم أز الوسيط أو حتى الحديث، ولكن نعرف كثيراً من أساتذة كليات الآداب قد تخصصوا في مختلف فروع الثقافة الغربية من قديمو ووسيطة وحديثة. فلا نلوم طلبة كليات الآداب إذا عرفوا الكثير عن "سقراط" و "أفلاطون" و "وأرسطو"، ولا يعرفون شيئاً عن "زرادشت" و "ماني" أو عن "بوذا" و"جاني" أو عن "كنفشيوس" و "لوتشيوس"، ويدروسون "الإلياذة" و"الأوديسه" بينما يجهلون "المهلبا راتا" و"الرامايانا"؛ ويمتحنون في أدب "أرستوفان" و"سوفكليس" و "إربيد" و "فرجيل". ولا يسألون عن آداب "لوبو" و"داوتشين" و"دوفو".

وأحسب أن كل ذلك يرجع إلى عدم عناية الجامعة بإعداد جيل من المتخصصين في شتى الثقافات الشرقية، لأن المشرفين عليها ما زالوا إلى الآن يقدسون صنم الثقافة الغربية ويجدون فيها العزاء الفكري الكامل الذي يكفل تنمية عقل الطالب دون حاجة إلى ثقافات الشرق. مع أن تراث الفكر الشرقي تراث وفير وعميق يتناول شتى فروع الثقافة الإنسانية، ولا يبزه تراث الفكر اليوناني في شيء. هذا فضلاً عن تنشئة الطلبة العرب على الثقافات الشرقية في إيقاظ لمواهبنا الروحية الخامدة. وتدعيم لنزعاتنا الانسانية الراكدة؛ وإن حياة فكرنا في كنفها يبعث على الثقة والاطمئنان، فنشعر بأننا نعيش في أحضان ثقافات صدرت عن نبع تكلف به نفوسنا وانبعثت من معين حلو تألفه روحنا، يوحى بشيء من العزة الفكرية والكرامة العقلية، فنؤمن بقدرتنا على الخلق والابتكار. ومتى وثقنا في عقولنا وآمنا بعبقريتنا، فإننا سننتج في ميدان الثقافة ما يبهر الشرق والغرب على السواء، ونتخلص من ذلك الشعور الأليم بالنقص الذي يلقى فينا بانفعالات مريرة توهمنا بأننا أقل فطنة وقدرة من الغرب، فلا نستسلم لثقافاته ولا نشعر بعجزنا عن النتاج الأصيل.

لا ريب في أن نشر الثقافات الشرقية من إيرانية وهندية وصينية في ربوع الوطن العربي في إحياء لعقولنا الخاملة التي استعذبت المحاكاة، وبعث لعبقريتنا التي طال أمد جمودها ومتى نشطت العقول واشتعل بريق العبقرية فلن تحتاج لثقافة شرقية أو ثقافة غربية في تربية فكرنا، وسنسير في الطريق الذي يدفع بنا إلى وضع ثقافة أصيلة تنم عن طبيعتنا وتلائم اتجاهاتنا تعطى أكثر مما تأخذ. فإن كنا نعيب على كليات الآداب عدم عنايتها بتدريس الثقافات الشرقية، فلاننا– في الحقيقة– نرى أن بتزويد طلبتها بهذه الثقافات يحقق صحوة العقل العربي الشرقي الميول. ولذلك لا يجب أن يقف تدريس تراث الشرق لطلبة كليات

الآداب دون بقية أفراد الأمة العربية. ولا يوجد ما يمنع تدريسها كذلك في المدارس الثانوية والاعدادية بالمقدار الذي يلائم مستوى كل مدرسة. ذلك لأننا في وقت نبذل. كل ما نستطيع جهد لتوطيد صداقتنا بالشعوب الآسيوية الإفريقية وهي شعوب شرقية ولكن كيف يمكن أن نقيم هذه الصداقة إذا كان الشعب العربي يجهل الشيء الكثير عن تاريخ تطور هذه الأمم فضلاً عن جهله بثقافاتها...!؟

لقد سبقنا الغرب في التوفر على دراسة الفكر الشرقي دراسة مستفيضة لا حباً في الفكر الشرقي؛ ويرجع إليه الفضل الأول والأخير في كشف النقاب عن كل ما كان يمط التراث الشرقي من غموض وظلام لا عن رغبة في الأخذ منه، وإنما طمعاً في أن يفهم نفسية الشعوب الشرقية فيما يساعده على إطالة أجل استعماره لهذه الشعوب على أساس من المعرفة والعلم. ولكننا نحن العرب لا نتهم حتى أن نقيم صداقتنا للشعوب الشرقية على أساس من المعرفة والعلم، ونكتفي بأن نقيم هذه الصداقة على تقارب أهدافنا في محاربة الاستعمار أو على تشابه آمالنا في خلق حضارة شرقية. ولكن كيف يمكن أن نطهر الشرق من المستعمرين... وكيف نؤسس حضارة شرقية... إذا كانت أغلبية الشعوب تجهل ثقافات بعضها بعضاً...؟ لذلك يجب أن تضاعف الجهود حتى تنتشر الثقافات الشرقية بين أفراد الأمة العربية، إذا أردنا أن نقيم صداقتنا مع الشعوب الشرقية على أساس وطيد لا ينفصم. لأن المعرفة تولد الألفة، والألفة تعين القادة على رسم السياسة التي تصهر الشعوب في وحدة تخلق منها قوة تعمل على صون النزعات الروحية ونشرها في ربوع العالم.

وكتاب "قصة بوذا" ما هو إلا محاولة متواضعة لنشر تراث الثقافة الشرقية في الوطن العربي. وكم كنت أتمنى أن تكون دراساتي الجامعية قد أتاحت لي فرصة

الإلمام باللغات الهندية على الخصوص اللغة السنسكريتية اللغة البالية لتكون عدتي في كتابة "قصة بوذا". ولكا أرجو في المستقبل القريب أن تظهر كتب في الفكر الشرقي يعتمد كاتبوها على المصادر الأولى في لغاتها الأصيلة وليس على ترجمات في لغات غربية.

ع. الزكى

مقدمة

إن سرد قصة حياة بوذا ليس بالأمر الهين، فهي حياة وقعت أحداثها في عهد يبعد في القدم إلى القرن السادس قبل الميلاد. وهو عهد ما زال غامضاً على المؤرخين، ولم يحدد معالمه الباحثون بعد، ومهما بلغت دقة الباحث فلن يخلو بحثه في حياة بوذا من التعرض إلى الأساطير والخرافات، مما دعا بعض المشتغلين بالبوذية إلى اعتبار بوذا شخصية أسطورية خرافية خلقتها العقلية الهندية كما خلقت غيرها من الشخصيات الخرافية، وأحاطتها بالمعجزات والكرامات.

إن الأساطير التي وصلتنا عن بوذا لا تبدأ منذ ولادته، وإنما تتعرض له قبل أن يولد، وتستعرض شتى مراحل حياته ومماته وبعد مماته، فتاه الباحثون فيها، ووجدوا صعوبة كبرى في تعرف حياة بوذا الصادقة الحقيقية مما أدى إلى إنكار وجوده كفرد حقيقي، واعتبروه كريشنا أحد أبطال ملحمة المهباراتا، ثم أله بعد ذلك نظراً لسمو أخلاقه، وسعيه الدائم لنشر الخير، أو مثل راما بطل ملحمة الرامايانا، وهو أحد هؤلاء الأبطال الذين ضحوا بكل شيء في سبيل الشرف والكرامة والعزة ونصرة الحق ونشر الخير فآلهة الهنود. ورأى بعض المفكرين أن بوذا لا يخرج عن أن يكون بطلاً أسطورياً مثل كريشنا وراما ثم أله بعد ذلك مثلهما تماماً، إذ ينقصنا الدليل القاطع على وجوده خصوصاً وأن يوم ميلاده لم يعرف بالضبط، وإذا ما عرفنا أن السير المعتمدة التي تناولت حياته كانت تحفظ في الصدور، ثم

دونت بعد وفاته بقرون بعد أن أضيفت إليها أضافات متنوعة في الشرق الأقصى، فهناك سير كتبت في الهند، وأخرى في سيلان، وثالثة في الصين وغيرها من بلاد الشرق الأقصى كالتبت، وقد دونت هذه السير في وقت تعددت يفه المذاهب البوذية حتى بلغت العشرات، وتوخى كل من حاول تأريخ حياة بوذا أن يعرضها في صورة تؤيد دعائم مذهبه فأحيطت حياة بوذا بالمعجزات والكرامات حتى تجذب الأنصار.

فكل هذه العوامل تجعل من تناول حياة بوذا أمراً شاقاً ولذلك حينما حاول المشتغلون بالفكر البوذي من أمثال: رييز دفيدز وزوجته، وصامويل بل، وماركس مولر، وفوسيل، وأدوارد توماس وغيرهم عرض حياة بوذا عرضوها في صورة تكاد تكون مجردة من الأساطير، وجعلوا من بوذا شخصية إنسانية لا شخصية إلهية، ولذلك لا أجد نفسي مجانباً للصواب إذا ما سرت على منوال علماء الفكر البوذي في تناول قصة حياة بوذا. فلقد أطلعت على ترجمات كثيرة من الكتب التي كتبها الهنود وأهل سلان والصينيون، وعلى كثير من التراجم التي كتبها الباحثون الغربيون عن حياة بوذا، فتوصلت إلى فكرة عامة عن حياة بوذا جمعتها من مختلف هذه الكتب مستوحيا تعاليمه، محاولاً أن أعرض حياته عرضاً يبين كيف أدت تطوراته النفسية إلى تكوين عقيدته مستعيناً ببعض الأساطير التي كان لها أثر كبير في نشر البوذية، ولها دخل عظيم في تعلق البوذيين بتعاليم بوذا.

وإذا كانت هناك صعوبات في عرض قصة حياة بوذا بدقة وصدق، فلا شك في أن هناك شبه استحالة في عرض تعاليم بوذا غير مختلطة بتعاليم

أتباعه، لأن بوذا لم يترك كتباً خاصة به، ودونت تعاليمه بعد وفاته في فترات متفاوتة حدث فيها كثير من الإضافات والبدع كادت تغير معالم العقيدة البوذية التي وضعها بوذا نفسه، إلا أنني توخيت في هذا الكتاب تناول تعاليم بوذا ونظمه ما أمكن من إغفال ذكر كل ما يشك في أنه نسب إليه ولم يكن من بين تعاليمه الأصيلة. ولكن لا أحسب أن في قدرة أي باحث في الفكر البوذي في وقتنا الحاضر أن يحدد تعاليم بوذا تحديداً وافياً ثابتاً لا ريب فيه، ولكن عندما يتقدم البحث في أفكار بوذا قد يتمكن الباحثون من تمييز تعاليم بوذا من تعاليم أتباعه تمييزاً قاطعاً.

عبد العزيز مُحَمَّد الزكى
الإسكندرية
يناير ١٩٥٩

الفصل الأول

مولد جوتاما ونشأته

في القرن السادس قبل الميلاد كان الغزاة الآريون قد استقروا من زمن في شمال الهند، واختلطوا بسكانها الأصليين، وكونوا القرى والمدن، واشتغلوا بالزراعة. وكانوا يعيشون في قبائل تخضع لحاكم يهتم بصالحه الشخصي قبل أن يهتم بصالح شعبه.

وكان ينظم حياة الهنود نظام الطوائف الذي يقسم الهنود إلى طوائف أربع رئيسية، على رأسها طائفة البراهمة التي تتكون من رجال الدين، الذين كان لهم نفوذ ديني يسمح لهم بالسيطرة على الحياة العامة. ويليها طائفة الكشاتريا التي تتكون من رجال الجيش الذين يحاربون الأعداء، ويحفظون الأمن في داخل البلاد، فأتاحت لهم القوة الحربية فرص الاستيلاء على الحكم. أما طائفة الفسيا فيشتغل أفرادها بالتجارة والزراعة، والصناعة، بينما يقوم أفراد طائفة السودرا بأعمال الخدم.

وكان الحكام وأفراد الشعب يحترمون رجال الدين من البراهمة، ذلك لأنهم كانوا يقومون بأداء الشعائر الدينية التي لا يجيد أداءها غيرهم، ويرتلون الأناشيد الفيدية التي لا يعرف طرق ترتيلها سواهم، ويفسرون الكتب الدينية من فيدا وبرهماناس ويوبانيشاد التي لا يعرف أسرارها غيرهم. فضلاً عن أنهم يدعون أنهم يعرفون أثر النجوم والكواكب على

حياة الأفراد، وتفسير الأحلام، وقراءة الطوالع، ويوحون للهنود بأن لهم دراية تامة بشتى الوسائل التي تبعد الشر، وتجلب الخير خصوصاً وأن بلاد الهند عرضة للزوابع والفيضانات والقحط، وغاباتها مليئة بالحيوانات المفترسة، فتفنن البراهمة في عمل الرقي والتعاويز التي تحمي الهنود من خطر تقلبات الطبيعة والحيوانات المتوحشة.

ومما ساعد على تقوية نفوذ البراهمة إيمان الجميع بعقيدة التناسخ التي تزعم بأن روح الميت تولد في جسم جديد من إنسان أو حيوان أو نبات حسب أفعاله السابقة، وأن من يهرب من سلسلة الولادات المتتالية يستقر مقامه في النفس الكبرى التي تتجلى في شتى موجودات من انسان وحيوان ونبات وجماد ويعيش في سعادة مطلقة لا تعرف الموت والولادة وآلام الحياة. وخيل للناس أن في قدرة البراهمة إنقاذهم من توالي الموت والحياة. ولذلك كان لكهنة البراهمة سيطرة روحية عظيمة مكنتهم من استغلال الحكام والشعب الهندي، فاغتنوا، واقتنوا القصور والضياع، وعاشوا في كنفه عشرات الزوجات، ولم يعرف إلا القليل منهم حياة الزهد.

ومع ذلك فلقد كان هناك عدد كبير من الهنود من مختلف الطوائف قد هجروا بيوتهم، وسكنوا الكهوف والمغارات، وتجولوا في الغابات، يعذبون أنفسهم بأقسى أنواع الرياضات الجسمية والمجاهدات النفسية ليقضوا على نزعات الحس التي تجري وراء رغبات الشهوة، وقبلوا أن يقطعوا كل صلة تربطهم بالحياة ليفوزوا بالحياة في النفس الكبرى حيث

السعادة الحقة التي لا تزالا آلام أو أحزان، وبصير الله والإنسان حقيقة واحدة.

وفي هذا الجو نشأت أسرة جوتاما الكشارترية المحاربة من قبيلة ساكيا في بلاد نيبال، وحكمت ولاية (كابيلافاستي) التي تقع على أحد ضفتي نهر روهيني الذي ينبع من جبال الهمالايا، ويقع شمال مدينة بنارس الحالية. ويحد ولاية كابيلافاستي اتحاد ليشافيس القوي ومملكة ماجادها الفتية شرقاً. ويحدها أراضي البراهمة المقدسة وولاية كوشالا التي تعادي مملكة ماجادها غرباً. وكان التنافس بين ولاية كوشالا ومملكة ماجادها سبباً في صيانة استقلال ولاية كابيلا فاستي، مع أن قوتها الحربية لا تقوى على حفظ استقلال البلاد، وإن كانت تقوى على صد هجمات القبائل الجبلية، وإخضاع العشائر الثائرة التي تخرج عن طاعتها.

وكان سكان كابيلا فاستي يشتغلون بالزراعة على مياه نهر روهيني أو يرعون الأغنام والماشية على المراعي الجبلية. وأحياناً كان ينشأ نزاع بين قبيلة ساكيا وقبيلة كولي التي تعيش على الضفة الأخرى من نهر روهيني بسبب مياه هذا النهر. إلا أن هذا النزاع كان سرعان ما ينتهي بالصلح نظراً لما يقوم بين القبيلتين من أواصر القرابة والمصاهرة.

وفي فترة من الفترات التي كان يسود فيها الوئام بين القبيلتين تزوج زعيم ساكيا سودوهودانا زعيم كولي إلا أنهما لم ينجبا أطفالاً مما أحزن قلب سودهودانا، خصوصاً وأن هذه القبائل تعتقد أن حالة الإنسان في حياته

التالية بعد الموت، تتوقف على العشائر التي يقيمها له من يخلفه في الزعامة، وأن أبر فرد للزعيم هو الابن.

ولكن حدث أن أتته زوجة مايا الأخت الكبرى في ذات يوم، وهي في سن الخامسة والأربعين، وأخبرته بأنها بعد أن صامت سبعة أيام حلمت حلماً غريباً، وهو أن الملائكة صعدت بها في أعنان السماء، وأن فيلاً أبيض اللون، متناسق التكوين، بديع المنظر، رأسه تلمح كالزمرد، وأنيابه ذهبية، ومسلح بأسلحة ست دخل رحمها من جانب الأيمن. فاستدعى سودهودانا الكهنة والعرافين، وطلب منهم تفسير هذا الحلم، فأخبروه بأن زوجته ستلد له ولداً سيكون له شأن عظيم، لأن الكتب المقدسة تذكر أن الرجل العظيم يتسرب إلى رحم أمه في شكل فيل يتصف بمثل هذه الصفات.

ولم تمض أيام حملت مايا. ويذكر أن هذا الجنين كان يرى في رحم أمه جالساً جلسة القرفصاء أثناء أشهر الحمل. وفي الشهر الأخير من الحمل طلبت مايا من زوجها أن تسافر إلى أهلها لتضع المولود عندهم كما هي العادة في ذلك الوقت. فأعد لها زوجها شتى سبل الراحة حتى لا يسبب لها السفر المتاعب، كما أعد لها والدها قصراً خاصاً لتلد فيه وهي في راحة تامة.

ولكن أتاها المخاض وهي في الطريق، فاضطرت إلى أن تضع رحالها تحت شجرة سال في بستان لومبيني. وأثناء الوضع انحنت الشجرة لتظلها،

وأتت الملائكة لمساعدتها. وعندما وضعت خطا الوليد إلى الأمام سبع خطوات، وصاح قائلاً "إنني سيد الكون، إن هذه الحياة آخر حياة لي" وظهرت اثنتان وثلاثون علامة في السماء والأرض، منها انتشار النور في كل مكان، واستعادة الأعمى البصر، والأصم السمع، والأبكم النطق، واستقامة الأشرار وسعادة عامة الناس. وبعد الولادة عادت الأم وابنها إلى قصر زوجها.

وفي اليوم الخامس بعد الولادة أقام سودوهودانا حفلاً كبيراً اجتمع فيه البراهمة والعرافون وقراء الطوالع والمنجمون والمتطلعون على أسرار العلامات وقرروا جميعاً بأن سيكون لهذا الطفل شأن عظيم، لأن به سبع علامات مقدسة، تدل على أنه إما سيكون حاكماً من أقوى حكام العالم تدين له كل الدنيا أو زاهداً من أعظم الزهاد قاطبة يبشر بتعاليم جديدة تنقذ البشرية من الآلام وذلك بعد أن يشاهد كهلاً ومريضاً وميتاً وزاهداً، ثم يهجر قصر أبيه، ويعيش عيشة الزهاد.

فابن الحاكم إما يصبح ملكاً مرهوب الجانب واسع السلطان، وإما يصبح واهداً قوي الروح تنتشر تعاليمه الجديدة في كل مكان. ولا يوجد المع من هذين المستقبلين في ذلك الوقت؛ فإن الحاكم القوي هو المثل الأعلى لطائفة الكشاتريا التي تنتسب إليها أسرة جوتاما، وإن الزاهد المستنير مكانته أرفع من مكانة البراهمة أنفسهم سواء ظهر من بين طائفة البراهمة أو حتى من بين طائفة السودرا، لأن الشخص الذي ينجح في الإفلات من براثن الحياة، وينجى بنفسه من الشهوات والرغبات، ويرضى

بتعذيب الجسد والنفس في سبيل الطهارة الروحية؛ لا شك في أنه شخص ممتاز يستحق التقدير والاحترام دون النظر إلى أصل طائفته. فإن لم يكن ابن الحاكم من طائفة البراهمة إلا أنه يمكنه أن يكون أحد هؤلاء العظماء الذين يمكنهم تحطيم قيود الحياة، ويصبحون من بين زعماء الروح. فهل خدع الكهنة وقراء الطوالع سود هودانا بهذا التنبؤ!؟ ولكن الأحداث صدقت التنبؤ الأخير، فهل تكشف لهم الغيب حقاً؟ وهل نفذت بصيرتهم إلى إسرار المستقبل أم وضعت قصة هذا التنبؤ بعد أن تم لبوذا سيطرته الروحية، وأخذ أعوانه بعد موته يحيكون مثل هذه القصص ليضيفوا على حياته هالة من المعجزات والكرامات!؟

إن الذين تعرضوا لكتابة حياة بوذا سردوا كثيراً من المعجزات والخوارق وخلطوا الواقع بالخيال حتى يصعب على الباحثين تمييز الحق من الباطل. ولكن لا يجب أن تهمل هذه القصص عند تأريخنا لحياة بوذا لمجرد أنها تخالف سنن الحياة وتعارض مألوف الطبيعة، وأن غرضنا من ذكرها أن نعرف حياة بوذا كما يعرفها البوذيون أنفسهم، هذا فضلاً عن أنه لا يوجد دين يخلو من معجزات وخوارق سواء أكانت حقيقية أو مختلفة، إذ لا يستقيم دين إذا لم يحط نبيه بهالة من الألوهية بأن ينسب إليه كرامات عجيبة تدعم دعوته، خصوصاً في العصور القديمة التي كان للخرافة فيها تأثير كبير على العقول.

ولم يمض يومان على هذا الحفل الكبير الذي اجتمع فيه الكهنة والمنجمون، حتى وافت الملكة مايا المنية، وتركت ابنها الوليد في المهد،

وهو لم يتجاوز أسبوعاً واحداً من العمر، وليس في موتها أي غرابة لأنه لا يجوز لها أن تلد مولوداً آخر بعد هذا الابن المقدس. ولقد كفلته خالته زوجة أبيه الثانية التي لم تنجب أطفالاً، وتولته بالرعاية والحنان، وشملته بالعطف والحب، وخصصت له مرضعة رحيمة.

أما عن الاسم الذي وضع للوليد الجديد فلا يكاد يعرف بالضبط إذ نسب إليه اسماء كثيرة لا يعرف اذا ما وضعت عند ولادته أو بعد موته. فلقد لقب باسم (سدهارثا) أي الشخص الذي حقق عرضه، وباسم (ساكياسيها) أي أسد قبيلة ساكيا، وباسم (ساكيا موني) أي حكيم قبيلة ساكيا، وباسم (سودجانا) أي الشخص السعيد وباسم (دساتها) أي المعلم وباسم (جينا) أي المنتصر، وباسم (هاجانا) أي المبارك. وباسم (لوكاناتا) أي سيد العالم، وباسم (سارفجنا) أي العالم بكل شيء، وباسم (دهارماراجا) أي ملك الحق، ولقب بأسماء أخرى كثيرة تصف عادة أخلاقه وفضائله وقدراته الروحية، إلا أن جمهرة الباحثين الذين يؤرخون حياة بوذا يفضلون تلقيبه باسم أسرته (جوتاما).

ولا نكاد نعرف شيئاً عن طفولة جوتاما بعد وفاة والدته، إلا حادثة عجيبة ما ذكرت إلا لتبين إحدى المعجزات التي تنسب إلى بوذا. إن من عادة الأهالي على رأسهم الحاكم الاحتفال بعيد الحرث عند بداية موسم الزراعة.

واصطحب سودهودانا طفلة معه ليحضر هذا الحفل، وأرقده على وسادة تحت ظل شجرة. ولكن حدث أن انصرف الجميع إلى الحفل فرحين مسرورين، ونسوا الطفل مدة طويلة، فلوحظ أن الطفل أجلس نفسه جلسة القرفصاء على الوسادة مما حير الجميع، وزاد في دهشتهم أن ظل الشجرة لم يتحول عن الطفل، بل ظلت الشجرة تستظله وتحميه من وهج الشمس مع أن ظل جميع الشجر قد تحول تحوله الطبيعي.

أما عن صبي جوتاما فيكاد الرواة يغفلون هذه الحقبة من حياته على أهميتها القصوى في فهم شخصيته فيما حقيقياً صادقاً، إ أن نوع التربية التي تلقاها في صباه تلعب دوراً هاماً في تحديد مقومات شخصيته، وأن نوع الثقافة التي تزود بها تعيننا على إدراك دواعي ميله للعزلة. كما أن دراسة تطورات حياته النفسية في فترة المراهقة تضع أيدينا على العوامل التي أدت إلى نظرته الحالكة الكئيبة إلى الحياة وإلى رغبته القوية في الكشف عن حقيقة خالدة بعيداً عن غمار المجتمعات. إلا أن هناك أحد[٤] الرواة المتأخرين لم يبخل علينا بذكر بعض أحداث صباه، وإن كانت لا تخلو من غموض ومغالاة، إلا أنها لم تترك هذه الفترة من حياة بوذا مجهولة لنا تمام الجهل، وتمدنا بوقائع تفسر لنا بعض المميزات النفسية التي هيأت جوتاما لهجرة أهله، والاندماج في سلك الزهاد والنساك.

لقد نشأ جوتاما في بيت أعرق بيوت الكشاتريا، وكان أبوه عريض الثراء، ويتولى حكم البلاد، هذا فضلاً عن أنه كان وحيد أبيه، وليس له

(4) The Life of Buddha: By Asvaghosha Bod hisattva.

منافس في وراثة أبيه، وتولى الحكم من بعده. فلا نعجب إذا أمعن والده في تدليله ورعايته، وأحاطه بشتى وسائل الراحة والترفيه، خصوصاً وهو يرسخ تحت ثقل أفكار غرسها مفسري العلامات وقراء الطوالع في عقله، ولذلك كان يخاف على الدوام من أن وريثه قد تجبره الأحداث إلى أن يهجر قصر أبيه، مضحياً بالحكم في سبيل أن يصبر زاهداً. ولذلك حاول الأب وما زال وحيده في نعومة أظفاره أن يكفل له الحياة الناعمة الهادئة البهجة السارة حتى لا يخطر له في يوم من الأيام أن يخرج من بيته ولا يعود إليه.

ولكن لا ننسى أن أمه ماتت وهو ما زال في المهد صبياً ابن سبعة أيام، فنشأ يتيم الأم، وإن حدثنا الرواة عن حنان خالته زوجة أبيه الثانية، وكيف أنها اتخذت منه ولداً، وولته عنايتها، ومنحته قلبها، لأنه لم يكن لها من النسل ما تمنحه العناية والعطف والحنان والحب. إلا أن فقد الأم لا يغني عنه بديلاً مهما كان هذا البديل، وأن أثر حرمان جوتاما من أعز مخلوق عليه لا أحسب أنه مر دون أن يحرك كوامن نفسه الرقيقة الحساسة. ولعل هذا اليتم هو الذي غرس أول بذرة تشاؤمية في نفس جوتاما، أخذت تنبت شيئاً فشيئاً حتى نمت وترعرعت مع الأيام، وقوت جذورها مآسي الحياة.

ولما بلغ جوتاما الثامنة عهد به والده لأعظم معلمي مملكته ليزوده بثقافة عصره حتى يشب مستنيراً عالماً بكل ما يحيط به، فيسحن الحكم عندما يتولاه. وبدأ المعلم يلقنه أصول القراءة والكتابة، وما أن أتقنها حتى أخذ يقرأ شعر الملاحم، والأناشيد الدينية، وحكم النساك إلى أن حفظ

كثيراً منها على ظهر قلب. وبعد ذلك أخذ يدرس أعمال سكان السواحل والجبال والغابات، إلا أن الثقافة النظرية لا تكفي لتكون عقلية الحاكم، فتوفر جوتاما على دراسة العلوم الرياضية من حساب وهندسة وفلك، ولقد اظهر على الدوام سرعة فهم لكل ما يلقى عليه من دروس، وقدرة فائقة على استيعابها واستظهارها حتى فرح به أبوه فرحاً كبيراً. وما أن قوى عوده، واشتد ساعده حتى كانت الحدائق الملكية ميداناً للتدريب على ركوب الخيل، وقيادة السجلات حتى مهر فيهما مهارة فائقة. وكثيراً ما كان يقضي أوقات فراغه في صيد الغزلان ووفى التسابق بالخيل، ولكنه غالباً ما كان يطلق سراح ما يصطاده من غزلان، ويتوقف في منتصف السباق عندما يجد جواده قد فقد أنفاسه، وأضناه الجري، ذلك لأن نفسه المرهقة لا ترضى لأحد أن يتألم، ولا ترتاح إلى التسلي بتعذيب الحيوان، واللهو بإيذاء الغزلان والخيل.

وعاش جوتاما في صباه عيشة خالية من تلك الآلام التي يقاسيها من يوجد خارج قصور الحكام. وكان قرة عين أبيه، يوفر له حياة النعيم والرفاهية على الدوام. فأمضى جوتاما شبابه في مرح طاهر ولهو برئ لا يعكر صفو حياته شيئاً من الأشياء. ولكن يروى أن حادثاً أنزل بنفسه الكآبة مما أحزن أباه، فخاف أن يؤدي به إلى ذلك المستقبل الذي تنبأ به العرافون والمنجمون، ويلخص هذا الحادث في أنه حصل ذات يوم من أيام الربيع أن كان سرب من البجع طائراً فوق الحديقة الملكية، ومسافراً إلى موطنه الأصلي نحو الشمال حيث جبال الهمالايا الشاهقة، فإذا بأحد رفاقه من الأمراء يصوب سهمه نحو إحداها، فأصابها في جناحها، وسقطت

ملطخة بالدم بالقرب من جوتاما. وما كاد يراها تئن من الجرح حتى أسرع إليها وأمسكها، وأخذ يربت عليها بعد أن نزع السهم من جناحها، ثم ضمد جراحها. ولما عجز عن تسكين آلام الطائر حزن حزناً عميقاً، مما دعا والده إلى أن يهتم بعلاج البجعة، ولما شفيت أخلى جوتاما سبيلها وتركها تلحق بذويها. وأراد والده أن يزيل أثر هذا الحادث من نفسه، ويعيد إليه بهجته ومرحه. وكان قد أتى عيد الحرث عيد الربيع، فطلب من جوتاما أن يخرج إلى الحقول، ويشاهد خضرتها، والثمار الناضرة، والأزهار اليانعة، ويتسع تغريد الطيور، ويتمتع بمباهج الطبيعة الجميلة الخلابة. ولكن جوتاما لم يروجه الحياة الباسم في الربيع، ولم يلحظ ما في الطبيعة من جمال، وإنما رأى وجهها العابس وصورها الحزينة، رأى أن تلك الحقول لم تخضر، وأن تلك الثمار لم تنضج، وأن تلك الأزهار لم تتفتح إلا بكد الفلاح المرهق لبدنه الذي لم يبذله إلا سعياً وراء القوت، وأن الحقول والأثمار والأزهار لا تتمتع بما تتمتع به من جمال إلا بعد أن ترهق الماشية إرهاقاً شاقاً في وهج الشمس، ويستغلها الفلاح استغلالاً بشعاً من أجل منفعته؛ وأن الطيور التي تغرد تعيش على التقاط الديدان التي تعيش بدورها على كائنات حية أخرى، وأن جميع المخلوقات الحية من كبيرها إلى صغيرها يعيش على الفتك بغيرها، ولا يوجد إنسان أو حيوان أو حشرة يمكن أن يعيش دون أن ترهق حياة كائن ما.

فبدلاً من أن تسري أفراح عيد الربيع عن جوتاما، وتبعث في نفسه البهجة والسرور ساقته سوقاً إلى التأمل في مآسي الحياة، وبدلاً من أن يشارك الجميع في فرحهم ولهوهم إذا به ينزوي في مكان هادئ بعيداً عن

الصخب سارحاً في عائم الأفكار لا يرتبط بصلة بما يدور حوله من مرح وحبور. ولقد أنزعج سودهودانا لحالة ابنه أشد الانزعاج، وفكر تفكيراً جدياً في الوسائل التي تدخل السرور في قلبه، وتبعد عنه تلك الهواجس التي تدفعه إلى الانعزال، وتسوقه إلى ذلك للصير الذي تنبأ به المنجمون، وسودهودانا لا يرضى لوحيده أن يعيش هائماً على وجه في أحراش الغابات، وبين شعب الجبال، فعمد إلى تيسير كل سبل الترفيه التي كثيراً ما كان يلجأ إليها الحكام عندما يستولى على أحد أبنائهم ضرب من الغم والكرب والكآبة يحثه على قطع صلاته بكل ما يتصل بالناس. وكثيراً ما كانت تنجح سبل الترفيه في إزالة كل ما يعكر صفو ابن الحاكم الحزين، وتحببه في الحياة وفي الاندماج فيها. ولكن هذه السبل لم تنفع مه جوتاما، بل زادته نفوراً من الحياة، وإمعاناً في العزلة والتأمل. لقد شيد سودهودانا ثلاثة قصور ليقضي في كل منها فصل من فصول السنة التي ينقسم إليها مناخ الهند فكان مبنياً من الرخام المرمر المعرج ليكون رطباً، وشيد قصر فصل الأمطار من الآجر الأزرق ليلهو فيه وقت الحصاد، وكانت هذه القصور تحاط بحدائق فسيحة غناء مورقه يانعة على الدوام، تنساب مجاري الأنهار بين جنباتها الزاهرة. إلا أن الحياة المترفة الحلوة الناعمة لم تنزع الحزن العميق من جوتاما، فاضطر سودهودانا على عادته إلى أن يطلب العون من العرافين والمنجمين وقراء الطوالع، وفحص جوتاما من جديد لعلهم يجدون ما يطمئن قلبه، أو يعثرون على علامات تكذب تنبؤهم القديم، ولكنهم أكدوا له أن المصير المحتوم لا بد بالغه إذا رأى على التوالي كهلاً فمريضاً فميتاً فزاهداً. فوطد سودهودانا العزم على أن لا يرى ابنه أحداً من هؤلاء

الأشخاص على الإطلاق، ويشعله بحياة زوجية، ويحيطه بمئات الحسان حتى يحب الحياة، وينجى من تلك النهاية التي لا يرضاها له بحال من الأحوال لأنه يطمع في أن يكون جوتاما خليفته في الحكم.

ولقد بذل سودهودانا كل ما يستطيع من جهد ليدخل السرور في قلب ابنه الحائر، واتبع كل طريق يبعد عن ذهنه تلك الأفكار المضطربة النافرة من الحياة، ولكن ذهبت جهوده أدراج الرياح، وظل جوتاما على ما هو عليه من ميل للوحدة، وشغف بالتأمل الذاهل، لا يشعر بما يحيطه من جمال، ولا ينشرح صدره لم في الحياة من بهجة. فجمع سودهودانا وزراءه، وطلب منهم المشورة بصدد أطوار ابنه الغريبة، فنصحوه بأن يتخذ من الحب علاجاً لشفاء الشاب المراهق. فعزم الأب على أن يتيح لجوتاما من المناسبات ما تحيطه بأجمل الفتيات حتى يقع في غرام يلهيه عن كل شيء، ويفتح قلبه لكل شيء في الوجود من متعة وفتنة، فأمر الملك بإقامة حفل كبير دعا إليه أفتن العذارى، ووعدهن بأفخر الهدايا عند حضورهن، فتوافدت أجمل الفتيات على القصر في أبهى زينتهن، يلبسن أبدع الثياب، وأثمن الحلي. ولكن لما مررن أمام جوتاما ليقدمن له التحية، ويوزع عليهن الهدايا لم تنل واحدة منهن إعجابه، ولم يجد بينهن من هزت أوتار قلبه، حتى بدا عليه السأم والملل. ولكن أقبلت فجأة فتاة رائعة الجمال، وما أن وقع نظر جوتاما عليها حتى فتن بجمالها الخلاب افتتاناً، واشتعلت نيران الهيام في جوارحه، ووقع في حبها من أول نظرة. ولما تقدمت إليه حيته بابتسامة حلوة رائعة، وطلبت منه هديتها، فارتبك جوتاما خجلاً، ورد عليها آسفاً بأنه قد وزع جميع الهدايا قبل مجيئها، فقالت هازلة إنها لا تستحق هذا

العقاب، وإنها لم تأت إنما حتى لا تنال الهدية التي وعدت بها، فزاد ارتباك جوتاما، ورد عليها متلعثماً بأنه ليس في الأمر إثم وعقوبة، وإنما هي أتت متأخرة بعد أن وزعت جميع الهدايا. ثم خلع قلادة من جول رقبته، وألبسها إياها، ثم أمر بإحضار هدايا ثمينة أخرى وهبها جميعاً لهذه السيدة الرائعة الجمال. لم يغفل رجال الحاشية عن نظرات جوتاما الولهانة إلى يزودهار ابنة ملك كولي، وأدركوا أنها لا تخلو من إعجاب وهيام، وتسمعوا إلى همسات حديثهما. فأدركوا أن اهتمام جوتاما الكبير بيزودهارا أنه ولع بجمالها الفاتن، واستمرا حديثها الساحر، فأسروا بقصة النظرات والحديث إلى سودهودانا فسر سروراً عظيماً ووجد في يزودهارا المنقذ الوحيد لابنه من هاوية الزهد، ورأى أن حياته بجوارها قد تحثه على الإقبال على الحياة بما فيها من متع ولذات، فيشفى من تلك الانفعالات العابسة التي تلون أفكاره بألوان قاتمة. فأرسل أحد رجال الدين إلى والدها ليطلب يدها لابنه، ولكن لم يكن جوتاما أول من رغب في الزواج منها، وإن هناك كثيراً من الأمراء رغبوا في الفوز بها. وكان من عادة هؤلاء القوم في ذلك الوقت أن يجري بين الراغبين في الزواج مباراة يتنافسون فيها في شتى الفنون الحربية والرياضية والثقافية والدينية، فمن يتفوق على الجميع يفوز بالعروس، لأنه أثبت أنه جدير بها. وأخبر والد يزودهارا الكاهن بأن جوتاما شاب مترف مدلل يعيش عيشة ناعمة، وأنه لا يصلح لابنته زوجاً، وأن التقاليد تحتم على الزوج أن يكون فارساً مقداماً بارعاً في الفنون العسكرية، مبرزاً في الألعاب الرياضية، كما أن هناك كثيراً من الأمراء تقدموا لخطبة يزودهارا، ولابد أن تقام مباراة بينهم من ينتصر فيها يفوز بها. فعاد الكاهن إلى

سودهودانا، وأخبره بما سمعه من ملك كولى، فخزن حزناً عميقاً، وخاف أن يفشل ابنه في التغلب على أقرانه في تلك المباراة ولا يحصل على من عشقها فؤاده فتتوغل الكآبة في قلب العاشق، وتعميه عن كل ما في الدنيا من رونق وبهاء.

ولكن لما وصل أمر هذه المباراة إلى سمع جوتاما ابتسم ابتسامة التحدي ووطد العزم على أن يخوضها، وينتصر على كل من يتقدم لمنافسته. وأقام حاكم كولي حفلاً كبيراً أشبه بذلك الذي وصفته ملحمة المهباراتا والذي أقامه والد دوربادى حينما تكاثر الراغبون في الزواج منها، وفاز بها أرجونا بعد أن تفوق على كل من تصدى له في المباراة. ولقد تجمع حشد كبير من الناس في الحفل الذي أقامه والد يزودهارا من سادة ساكيا وسادة كولي، وقصده كثير من سكان المدن والقرى المجاورة، ليشاهدوا تلك المباراة. وذهبت العروس إلى الحفل وسط أهلها يحف بها الموسيقيون يصدحون بأشجي الألحان، ثم أخذ يقبل الأمراء المتنافسون تباعاً، وأخيراً أتى جوتاما راكباً جواده المحبوب كانتاكا. ولقد كان الحفل مهيباً أرهب جوتاما، ولكن ما أن رأى يزودهارا حتى ذهبت عن نفسه تلك الرهبة، وأعتلي وجهه ابتسامة مشرقة مصمماً على الفوز بمن استولت على مجامع قلبه.

وحين بدأت المباراة فاق جوتاما إخوانه ببراعته في استخدام السيف والقوس والسهم والهراوة. وأبدى قدرة فائقة على كبح جماح أكثر الخيول هياجاً، وترويضها على الركوب، وأظهر مهارة فائقة في قيادة العربات

الحربية وركوب الفيلة الضخمة، كما تقدم الصفوف في الألعاب الرياضية التي خاضها، ففاز في السباحة والجري بقصب السبق، وقهر كل من وقف أمامه في حلبة المصارعة والملاكمة، وبذ الجميع في دقة إصابة الهدف بالسهم، كما كان أبعدهم مرمى وأقدرهم على حمل وشد أثقل الأقواس وأصلبها. ولم يتفوق جوتاما على منافسيه في الفنون العسكرية والألعاب الرياضية فقط، إنما تفوق عليهم كذلك في فنون الشعر والرسم والموسيقى والرقص، وفي العلوم الدينية، وفي السحر وفي تفسير الأحلام، فحق لجوتاما أن ينال بزودهارا، لأن براعته العسكرية وتفوقه الرياضي، وتقدمه العلمي والثقافي تلزم حاكم كولى أن يزوج يزودهارا لجوتاما بعد أن أثبت امتيازه في كل مضمار، وأقنع الجميع بأنه يستحق العروس عن جدارة.

بعد ذلك أخذ الجميع يستعدون لحفل الزواج، فأقيمت الشعائر الدينية الخاصة بالزواج في يوم اختلف الرواة في تحديد تاريخه ولكن جميع ما ذكروه من تواريخ يبين إما أن الزواج تم قبل أن يتم جوتاما السادسة عشر أو بعد أن تعدى التاسعة عشر من عمره. وما أن تمت طقوس الزواج ومراسيمه العديدة حتى أقامت يزودهارا مع زوجها في أحد قصوره الثلاثة، بعد أن سبقتها إليه آلاف الحسان ليقمن برعاية جوتاما تحت إشراف يزودهارا، وكان بينهن المغنيات ذات الأصوات الساحرة، والعازفات البارعات في عزف أعذب الألحان، وكان بينهن أيضاً من يتوفرن على خدمته يسرعن في تلبية طلباته، ويحقق رغباته، وكانت الحسان تملأ جنبات القصر حتى لا يخطو خطوة ولا تقع عينيه على غادة ساحرة فاتنة. وأشيع أنه اتخذ منهن محظيات وزوجات وإن ظلت يزودهارا الزوجة الأولى المتربعة

على عرش قلبه. وظل جوتاما يعيش في قصوره عيشة كلها متعة ونعومة يرشف من شهد الحياة ما لذ وطاب، ويرتفع في أحضان الحسان ما يربو عن عشر سنوات، وقصد والده من وراء ذلك أن يغرقه في حياة الملذات الحسية حتى تظل عواطفه حبيسة الهيام.

ولكن لما أشبع جوتاما شهواته إشباعاً تاماً، وأرضى جميع نزواته ولبى نداء كل رغبة، جاء وقت لم تعد فيه شهوته تشتهي متعة، ولم تجد نزواته لذة لم تعب فيها عبا، فتوقفت رغباته عن طلب المتع، وأخذ يتضاءل إقباله عليها، وبدأ يمل حياة القصور، وعاد إلى حالته قبل الزواج، وفقد الشعور بالمرج والسرور ولم يعد يحفل بما يحيطه من جمال وفتنة وبهجة، إذا به لا يطيق عيشته اللاهية الصاخبة، وإذا بالنزعات القاتمة تسيطر على تفكيره من جديد، وأحس بنفور من الحسان، واشمأز من الملذات. وكان يتولاه الحزن والغم من حين لآخر، وينزع للوحدة والتأمل والوجوم، وكانت هذه النكسة من البوادر التي جعلت سودهودانا يحس بأن ميعاد انصراف ابنه عن حياة القصور قريب مما دعاه إلى تشديد المراقبة عليه، وإبعاد كل ما يبعث على الألم والحزن من طريقه، وأصدر الأوامر المشددة بإقصاء أي كهل أو مريض أو ميت أو ناسك قبل أن يسير جوتاما في أي طريق، وزيادة في الحرص طلب من الحراس إزالة الحيوانات النافقة، والطيور الميتة، والأزهار الذابلة من الحدائق الملكية في الصباح المبكر قبل أن يستيقظ جوتاما حتى لا تقع عيناه عليها أو يرى المرض والشيخوخة والموت ممثلاً فيها، فيزهد الحياة، ويعتزل ويطلب حياة النساك ليتخلص من آلام الحياة، ويتحرر من أحزانها.

الفصل الثاني

حجرة القصر

يكاد يصمت الرواة عن مجريات حياة جوتاما بعد زواجه، ولقد اشارت بعض الروايات إشارات عابرة إلى انصراف جوتاما إلى المتع الجسدية واللذات الحسية، مما دعا إلى تهامس أهل ساكيا بأن جوتاما لم يعد له عمل الانغماس في الملذات، وأنه كاد يفقد مهارته الحربية وقدراته الرياضية. ولكن مغالاته في طلب المتع جعله يسأم حياة الترف الخاملة، ومما زاد من ضيق جوتاما وحزنه أن يزودهارا ظلت ما يقرب من عشر سنوات لم تنجب نسلاً يسر به قلبه، ويشغل بعض وقته، فبدت عليه ضروب من الحيرة والارتباك والحزن والوجوم، وتولته رغبة أكيدة في الخلاص من يحاته الرتيبة التافهة، فعاد إلى حياة العزلة غارقاً في التأمل الشارد والتفكير الذاهل.

فلم علم سودهو دانا بما ألم بوريث ملكه، فكر في أن يطلق سراح جوتاما من سجن القصور، ويسمح له بخوض المجتمع الرحب، وطلب منه أن يخرج إلى شوارع المدينة ليرى كيف يعيش رعايا والده، ويفهم ما يدور بينهم من معاملات، ويمضي بعض الوقت منزهاً في الحدائق ولكن قبل أن يخرج جوتاما إلى الطرقات أصدر سودهودانا أوامر مشددة بأن يقصى من

سبيل جوتاما كل ما يعكر صفوه، وخصوصاً العجزة والمرضى والموتى والنساك حتى لا تقع عيناه إلا على كل ما يبعث على السرور.

وما أن سمع سكان المدن وأهل القرى بأن ولي العهد سيسير في الطرقات راكباً عربته حتى عم الفرح بين الجميع؛ وأقبل الأهالي على تمهيد الشوارع وتزيين الطرقات، ولبسوا أحسن الملابس. ولما رأى جوتامو البشر يعلو الوجوه انشرح صدره لحب مواطنيه له، وسر لسرورهم، ولم يتجول طويلاً في أنحاء المدينة حتى إذا به يرى منظراً لم يره من قبل، رأى رجلاً محطم الجسم هزيلاً ضعيفاً لا يقوى على السير، يتكئ على عصا، متآكل الأسنان مجعد الجبين، على رأسه شعيرات بيضاء، فذهل جوتاما لمنظره المؤلم، وسأل سائق عربته تشانا، "من هذا الرجل الذي تقوس ظهره، وكاد يفقد بصره، ويستعين بعصاه على السير؟ هل أذبلت الحرارة قوة جسده أم ولد على هذه الصورة؟ فتردد تشانا في الإجابة، ولما ألح عليه جوتاما في السؤال أخبره بأنه لم يولد على هذه الصورة، وإنما بدل العمر هيئته، وأصاب الزمان قواه بالضعف والهزال، وفقد لذة الحياة، ويعيش على الدوام في أسى وحزن، لأنه أصبح كهلاً عجوزاً وشيخاً مسناً بعد أن كان في يوم من الأيام طفلاً رضيعاً تربى على صدر أمه الحنون، ثم صار شاباً قوياً جميلاً يملأه الأمل ولكن أصبح بمرور الزمن على ما هو عليه الآن من ذبول وهزال وقبح، وبعد أن سمع جوتاما هذا الكلام سأل سائقة سؤالاً ثانياً "هل هذا الرجل هو الرجل الوحيد الذي أصابته الشيخوخة أم هناك أشخاص آخرون غيره؟" فأجابه بأن الجميع إذا ما تقدم بهم السن شاخو، وأن جوتاما نفسه معرض للشيخوخة، وهذه سنة الحياة وطبيعة الإنسان،

ولن يفر أحد من العجز، ففزع جوتاما من هذه الإجابة فزعاً شديداً، وجزع لأنه سيصبح في يوم كهل ضعيف وأن زوجته يزودهارا لن تنجا من ذبول الشيخوخة، وأنهما سيقاسيان كثيراً من الحزن والشقاء إذا ما طال بهما العمر، فاستولت الكآبة على قلبه، وشرد فكره، وأدرك أن حياة اللذة لا قيمة لها مادامت عرضة للزوال، ومادام الإنسان يبلغ الشيخوخة التي لا تمكنه من الاستمرار في طلب اللذة؛ وإنه إذا كان الآن شاباً قوياً فإن قوة شبابه تنضب بعد حين، فأغتنم وأمر تشانا بأن يعود إلى القصر ليهرب من منظر ذلك الكهل البشع، ولأنه لم يشعر بمتعه التنزه مادام شيخ الشيخوخة يطارده، وأن سنين الحياة تنقضي بسرعة تفوق سرعة الريح، ولما عاد إلى القصر، كان حزيناً هلعاً، يحس أنه يكاد يدفن في هذا القصر، وأن الحياة لا تطاق فيه.

وعندما سمع الملك بسرعة عودة جوتاما إلى القصر، لحزنه من رؤية الكهل، وجزعه من حياة الشيخوخة، حث إخوانه من الأمراء على أن يسروا عنه ولا يتركوه منفرداً، وأن يلحوا عليه في الخروج من القصر من حين لآخر، حتى لا يظل قابعاً فيه تستولى عليه الأفكار السود. فخضع لإخوانه آخر الأمر، وخرج من القصر للنزهة بعد أن قويت الرقابة على الطرقات لإبعاد أي شخص يتقدى جوتاما من منظره، وبعد أن زينت الشوارع والحدائق لتبدو جميلة خلابة تبعث في نفس جوتاما السرور. ولكن سرعان ما لمح رجلاً مريضاً على قارعة الطريق، متورع الجسم، مشوه الخلقة، يتنفس بصعوبة أنيناً متواصلاً، ويبكي بكاء مراً. فسأل جوتاما سائقه تشانا "من هذا الرجل؟ فأجابه بأنه مريض أنهكته العلة، وأضناه

السقم يطلب معونة مواطنيه. ثم عاد وسأله وهو حزين إذا ما كان هذا الرجل هو الشخص الوحيد الذي ألم به المرض أم هناك غيره كثيرون. فرد تشانا عليه بأنه لا يوجد شخص لا يتعرض للمرض، وأنه يبتلي الجميع، فاغتنم جوتاما، وأخذت الأفكار تدور في رأسه متسائلاً، عن الأسباب التي تدفع الإنسان إلى التمسك بجحيم الحياة يصلى بعذاب المرض. وعاد إلى قصر أبيه مفجوع القلب كسير الفؤاد.

ولما استفهم سودهودانا عن سبب عودة ابنه حزيناً، قيل له أنه رأى مريضاً، فلام الملك الحراس، وأنبهم تأنيباً قاسياً على غفلتهم، وطلب منهم المزيد من اليقظة والانتباه حتى لا يصادف الأمير ما يثير أشجانه، بل أخذ يشرف بنفسه على بهاء الطرقات ورونقها، وزود الحدائق بالمغنيات والعازفات، وبأجمل الفاتنات اللاتي برعن في اصطياد قلوب الرجال، وادخال السرور في نفوسهم. وبالرغم من كل هذه الاحتياطات رأى جوتاما في المرة الثالثة نعشاً يحمله أربعة رجال، وتولول النساء من حوله يشددن شعورهن، ويضربن صدورهن ويلطمن خدودهن. في حين يدق بعض الرجال على الطبول، ويعزف غيرهم على المزمار، بينما ينشد الكهنة الترانيم الدينية. فتعجب جوتاما من هذا المنظر الغريب، وطلب من تشانا أن يخبره عن أمر هؤلاء القوم، فأنبأه بأن ما يراه ما هو إلا جنازة ميت، قد فقد حيوية الحياة، ولم يعد يقوى على الحركة؛ وانطلقت روحه إلى مكان مجهول، وأن أهله وأصحابه يبكون على فقده، ثم تساءل جوتاما إذا ما كان هذا الميت هو الشخص الوحيد الذي توفى، فكانت الإجابة بالطبع أن الموت مصير كل فرد، ولا مهرب منه على الاطلاق، فأدرك جوتاما أن

المنية توافي كل انسان، وينزل الردى بالجميع في وقت معلوم، وأن شبح الموت مسلط على الرقاب في كل خطوة نخطوها. فإذا كانت الحياة تشقينا بضعف الشيخوخة، وتعذبنا بآلام المرض، وتقضي علينا بموت لن ينقذنا من ويلاتها، وإنما يعقبه حياة جديدة نقاسي فيها من جديد الشيخوخة والمرض والموت، كأن الإنسان يعيش في حلقة لا نهاية لها، تنتقل من الحياة إلى الموت، ومن الموت إلى الحياة، ولا تدور إلا حول الشيخوخة والمرض والموت. فكيف يمكن أن يطيق الإنسان هذه الحياة؟ وكيف لا يفكر في الهرب من تكرار الحياة، وتوالي الموت، وفي الخلاص من الشيخوخة والمرض والموت؟

ولما لاحظ تشانا ما طرأ على جوتاما من اضطراب لم يعد هذه المرة إلى القصر إنما استمر في السير إلى الحدائق حيث أخذت العازفات تصدح بأعذب الألحان، وتغني المنشدات أبدع الأغاني، وترقص الراقصات أفتن الرقصات، لكي يبثن السرور في نفس الأمير الحزين. ولكن ظل جوتاما على ما هو عليه من كآبة ووجوم غارقاً في أفكاره الحائرة، ولم تستطع فتنة النساء أن تغريه وتبدل من نفسه شيئاً، وأن حلو جدثيهن وعذوبة مسامرتهن لم تستطع أن تبعده عن ما يجول في خاطره. فعاد إلى القصر، وتدور في رأسه أفكار تقلقه، وتضنيه، وما أن وصل حتى التف حوله رفقاؤه، وأخذوا يناقشونه فيما يحزنه ويقلقه، ثم أخبره أحد الأصدقاء بأن حياة القصور الهادئة الوديعة المريحة بما فيها متعة ولذة لا تدعو إلى الحزن والقلق. "ولكن من الذي يضمن لي بقاء هذه الراحة وتلك اللذة إلى ما لا نهاية. ومن الذي يقدر أن يبعد عني ضعف الشيخوخة وآلام المرض وقضاء

الموت، والعودة إلى الحياة مرة ثانية أقاسي فيها من جديد ويلات الشيخوخة والمرض والموت إلى ما لا نهاية؟ كان رد جوتاما على هذا الصديق. ولقد اضطرب سودهودانا عند سماع هذا الرد، وألم به الحزن، وخاف أن يصبح وحيده زاهداً ولكنه لم يستسلم وأخذ يطارد جوتاما بالمغريات، ويحيطه بالرفاهية ليل نهار، وقرب إليه أجمل الغانيات ليأسرن قلبه، وأرسل إليه وزراءه ليخلصوه من الأفكار السوداء، ولكن ظل قلبه متعلقاً بالشيخوخة والمرض والموت، وظل عقله يبحث عن كيفية الخلاص من الشيخوخة والمرض والموت، وما استطاعت فتنة النساء أن تلهيه عن هذه المصائب الثلاث، ولا استطاع منطق الوزراء أن يزيل شبحها من ذهنه، وإن استطاع اقناعه بالخروج مرة رابعة إلى الحدائق. فاستعد سودودانا لهذا الخروج استعداداً كبيراً، فامتد الحراس في الطرقات عشرات الأميال لإبعاد كل ما يقلق مزاج جوتاما، وزينت الطرقات بأبهى زينة، ولكنه فوجئ برؤية رجل رزين هادئ يلبس رداء برتقالي اللون، فسأل تشانا عن كنه هذا الرجل، فأجابه بأنه ناسك هجر الحياة، يريد الخلاص، ويبحث عن طريق النجاة بعيداً عن المجتمعات، ولذلك قطع صلته بكل ما يربطه بالأرض، ولا يهتم بشيء من أمور الدنيا إنما يعيش على ما يتفضل به الناس عليه من صدقات، فتولى جوتاما نوعاً من الفرح، إذ وجد فيه المنقذ الذي يخلصه من وطأة الأحزان التي تشفيه، وعاد إلى القصر عازماً على أن يسلك مسلك هذا الناسك، لعله يجد حياة خالية من الشيخوخة والمرض والموت.

ولما أحس سودهودانا بميل ابنه لحياة النساك، أغراه الملك، وعرض عليه أن يتنازل له عن العرش، إذا كان ذلك يثنيه عن حياة الزهد، ولكن

جوتاما لا ينشد ملكاً أو أي شيء من الحياة وقال لأبيه إنه على استعداد لأن يعيش على الدوام بجواره إذا ضمن له أن الشيخوخة لن تهد حيويته ويظل أبد الدهر شاباً فتياً، وأن المرض لن يبتليه بالسقم والألم، وأن الموت لن يعرف السبيل إليه. ولكن من الذي يستطيع أن يؤمن أحداً ضد الشيخوخة والمرض والموت، فحزن سودهودانا وأدرك أن ابنه أفلت من بين يديه وأن جميع محاولاته لم تجد معه شيئاً، وأن إغراءه بتولي الملك لم يبدل من تصميمه.

وظل جوتاما في حيرته غير راغب في حياته التي يحياها، وينشد حياة خالية من الألم، ويريد أن يدخل في زمرة الزهاد، إلى أن سمع أن زوجته يزودهارا على وشك أن تضع له مولوداً بعد أن انتظره عشر سنوات. وكان هذا الخبر جديراً بأن يبعث في نفسه السرور، ولكن أحس بأن هذا المولود قد يقيده بأغلال الحياة، فلا يستطيع منها فكاكاً وهو غير راغب فيها، فعزم على أن يهجر الحياة في الحال، حتى لا يتعلق قلبه بحب طفله، ويرغمه على البقاء في قصور أبيه، ويعيش شقياً لا يعرف كيف يتخلص من حياة مليئة بالآلام والأحزان. وأدرك أن أي تردد أو تأخير في مغادرته قصر أبيه قد يفسد عليه حياته، فيفشل في فهم أسرار الحياة، ولذلك عزم على أن يهرب في هذه الليلة بالذات.

ولما رجع إلى القصر، كانت يزودهارا قد وضعت طفلاً ذكراً سمي راهولا، وكان الجميع يحتفلون بمولد حفيد الملك، وما أن دخل جوتاما القصر حتى التفت حوله نساء القصر مهنئات براهولا وإذا بأميرة من

قريباته تقبل عليه قائلة "بالسعادة ذلك الأب وبالسعادة تلك الأم وبالسعادة تلك الزوجة بابنها وزوجها" وما أن سمع لفظ "السعادة" حتى خلع قلادته، ومنحها إياها هدية منه، فظنت أن جوتاما أعجب بها، ووقع في حبها، ويريدها زوجة له، ولم تفهم أن لفظ "السعادة" التي نطقت به نبهت جوتاما إلى أن ما يطلبه هو السعادة، وأن السعادة الحقة في النجاة من الشيخوخة والمرض والموت، وأن الفرار من الحياة هو سبيل هذه السعادة، وأنه ما أعطى قلادته لهذه الأميرة إلا لأنها لقنته هذا الدرس الذي حثه على أن يبحث عن السعادة بعيداً عن الحياة. ثم تابع السير إلى قاعات القصر الداخلية، فوجد المغنيات والعازفات والراقصات ينشدن ويعزفن ويرقصن فرحات، فنفر منهم، وأسرع إلى حجرة يزودوهارا، فوجدها نائمة وفي أحضانها راهولا، وكان يود أن يأخذ ابنه بين ذراعيه، ويقبله ولكنه خاف أن يوقظ زوجته، فتحول بينه وبين الفرار، أو يخفق قلبه بحب ابنه، ويتعلق به، ولذلك ظل بعيداً عنهما إلى أن انتصف الليل، وقام بهدوء وألقى نظرة الوداع على زوجته وابنه الذي لم يبلغ من العمر إلا يوماً واحداً، ومشى في ردهات القصر، ووجد الراقصات والمغنيات والعازفات نائمات على الأرض من طول السهر، بعد أن أعياهن الرقص والغناء والعزف، وكن في أوضاع فاضحة أثارت اشمئزاز جوتاما، واحتقاره لأجسادهن، وذهب تواً إلى تشانا المخلص، وأخبره بعزمه على الفرار هذه الليلة، وطلب منه أن يعد العربة وحصانة المفضل كانتاكا، فاضطرب تشانا، واحتار لأنه كان خائفاً من غضب سوهودانا. ولكنه رضخ آخر الأمر وأعد لجوتاما العربة والحصان كانتاكا.

ولكن ما الذي دعا جوتاما إلى هجرة قصر أبيه في سن لا يتجاوز التاسعة والعشرين، ويفر من حياة مترفة ناعمة ليطلب حياة جافة خشنة قاسية...!؟ هل خوفه من الشيخوخة والمرض والموت هو حقاً السبب الوحيد لفراره..؟ أحسب أن هناك كثيراً من الدواعي ساقته إلى هذا المصير..

لقد نشأ جوتاما يتيم الأم، ولعل هذا اليتم قد قوى فيه نزعة الهنود الميالة للتشاؤم من الحياة فشب من صغره ميالاً للوحدة والعزلة، شغوفاً بالتأمل الشارد والتفكير الذاهل ينظر إلى الحياة خلال منظار أسود، فلم ير فيها غير الآلام والأحزان والشقاء بالرغم من تدليل والده ومن حياته الخاصة المليئة بالمتعة والملذات، وهي لا تثير الخوف أو تبعث على كراهية الدنيا. لا شك في أن رؤياه للكهل المتهدم والمريض المتوجع والميت الذي ينوح أهله على فقده أشعره بأن حياة القصور تختلف اختلافاً بيناً عن الحياة الواقعية، وأن ما يبدو على أهل ساكيا من فرح فهو زائف مصطنع أجبرهم والده على تكلفه حينما يمر بينهم، وأنهم في الحقيقة أشقياء تكثر بينهم المجاعات وتفتك بهم الأوبئة وتحصدهم حصداً. وكان الأولى بجوتاما أن يفكر في اسعاد رعايا أبيه عن طريق توفير الطعام للجميع ووقايتهم من الأوبئة وعلاج المرضى ورعاية العجزة. ولكن ما الفائدة من كل ذلك طالما هناك حياة أخرى بعد كل موت يتعرض فيها الإنسان لنفس الآلام التي قاساها في حياة سابقة. فإن الخدمات الطبية والاجتماعية لا يمكن أن تجول بخاطرها جوتاما لأنه كان يريد الخلاص وليس الخلاص من هذه الحياة فقط إنما من كل حياة أخرى تأتي بعد الموت. ولقد كان في امكانه أن يتخلص من حياته بالانتحار ولكن الانتحار لا يوقف عودته إلى الحياة من جديد. فضلاً عن أن جوتاما يؤمن بعقيدة

التناسخ التي تزعم أن الإنسان يولد من جديد بعد كل موت ويتقمص جسم حيوان أو جسم انسان حسب أفعاله الخيرة أو الشريرة وأن على الإنسان في حياته الجديدة أن يتطهر من الأوزار والآثام تطهيراً تاماً حتى يمكن أن تندمج روحه في الروح الكبرى التي تشمل كل شيء في الوجود ولكن سرعان ما تعود ثانية إلى الدنيا يتعاقب عليها الحياة الموت إلى أن تتحد بالروح الكبرى ثم تعود إلى الدنيا وهكذا إلى مالا نهاية.

فلا نعجب إذا اعتقد جوتاما بأن عذاب الحياة يطارد الإنسان في كل حياة سواء أفعل خيراً أم شراً. ولكن جوتاما صمم على أن يعثر على ما يخلصه من هذه الآلام، فلعل رؤيته للناسك قد أوحى إليه بأن قطع صلته بالحياة والانقطاع للتأمل قد ينير السبل أمامه، ويصل في النهاية إلى ما يبحث عنه، علماً بأن حياة الناسك كانت المثل الأعلى للحياة في ذلك العصر، بل إن مكانة الناسك كانت تفوق مكانة البراهمة الذين كانوا في قمة الطبقات الهندية، وإن احترام الهنود للمناسك كان يزيد عن احترامهم للبراهمي الذي يحترف الدين، مع أن كثيراً من النساك كانوا من طبقة السودرا أحط الطبقات الهندية إلا أن ثورتهم الروحية على الحياة الدنيا، وعزمهم الأكيد على أداء المجاهدات الجسدية والرياضية النفسية، ورضاءهم التام بحياة خشنة جافة قاسية، كان يكسبهم حب الجميع وتعظيمهم مهما كانت مرتبة الطبقة التي ينتمون إليها. ولذلك لم يقم حائل بين جوتاما ورغبته في حياة الزهد والتنسك وأن انتسابه إلى طبقة الكشارتريا لم يعق مستقبله كرجل محب للتأمل الديني والبحث الفلسفي، والكشف عن الحقيقة التي كان يحتكر البراهمة الاشتغال بها.

الفصل الثالث

البحث عن السعادة

لما أحضر تشانا العربة التي يجرها الحصان كانتاكا، ركب جوتاما العربة، وظلت تجري به في ظلمات الليل وهو شارد الذهن يفكر فيما هو مقدم عليه من حياة جديدة عليه كل الجدة، وكانت تراوده مشاعر من الحسرة على ما سيفقده من عز وأبهة وسلطان ومتعة ولذة ورفاهية، ولكنه قاوم هذه الخواطر بحزم، وعزم على أن يستمر في طريقه ويهجر الدنيا نهائياً. وعندما وصل عند نخر أنوما بعيداً عن مملكة كولي، خلع جواهره وأعطاها لتشانا ثم جز شعر رأسه بالسيف وأعطاه كذلك لتشانا، واستبدل ملابسه الملكية بملابس أحد الفقراء المارين، ثم طلب من تشانا أن يعود إلى أبيه، ويخبره بأمر هجرته للدنيا. ولكن تشانا ناشد جوتاما أن يعود معه، ولا يتمسك بحياة الزهاد، ولما رفض جوتاما ألح تشانا في أن يبقى معه ليقوم بخدمته ويسهر على راحته، فلم يقبل جوتاما ولذلك اضطر تشانا إلى أن يعود حزيناً، منكسر القلب، خائفاً من غضب سودهودانا.

بينما توجه جوتاما إلى مملكة ماجادها ليبدأ حياته الجديدة التي ارتضاها لنفسه. وفي أثناء توغله في الغابات المؤدية إلى هذه المملكة، صادفه جماعة من الزهاد يقطنون في جنبات هذه الغابات بعيداً عن صخب المجتمعات، فتقدم جوتاما إليهم، ثم حياهم، ولما ردوا التحية أبلغهم بأنه

زاهد حديث العهد بهجرة الدنيا، وأنه عزم على أن يسير في طريق الزهد؛ فطلبوا منه أن ينضم إليهم، ويلتحق بجماعتهم، ويقوم بما يقومون به من واجبات روحية، ويشاركهم الحياة في الغابة. إلا أن جوتاما ليس عنده دراية بهذه الوجبات الروحية، إذ لم يمارسها من قبل، فطلب من كبيرهم أن يخبره عن مختلف طرق المجاهدات التي يمارسونها، ويبين له الباعث الذي يدفعهم إلى أدائها، ويوضح له الغاية التي يهدفون إليها من ورائها. فأخبره كبير الزهاد بأنهم هجروا الدنيا طمعاً في حياة روحية حقة بعيداً عن تضارب الأهواء والرغبات والمطامع، وأن حياتهم في الغابة حياة دينية خالصة تقوم على تعضيب الجسد، وإقامة الشعائر للنار؛ وتلاوة الصلوات والدعوات. وهم أحياناً يحرمون على أنفسهم الطعام والشراب، وأحياناً لا يأكلون إلا أبسط المأكولات وأقلها، ومنهم لا يأكل إلا ما يلتقط من حب كالطيور، ومنهم من يعيش على ما يجمعه من ثمار الأزهار والفاكهة، ومنهم من يتغذى على الأعشاب كالغزلان، ومنهم من يسد أودة بما يستجد به من طعام وشراب من أهالي القرى المجاورة. وهذا فضلاً عن أنهم يقومون بمجاهدات مضنية لتطهير الروح من أوزار البدن، فيعذبون أجسادهم بالنار أو يلزمون أنفسهم بالتنفس في الماء كالأسماك، أو يجبرون أذرعتهم على أن تظل مرفوعة إلى أعلى، أو يضعونها على فوق رؤوسهم لمدة طويلة بصفة مستمرة. وهم كذلك يقربون القرابين للنار المقدسة يومياً حتى يظل لهيبها يتصاعد منه الشرر على الدوام. وفي أوقات محدودة يؤدون الصلوات ويتلون الدعوات وأن غايتهم من كل ذلك هو تخليص الروح من أدران الجسد التي تسبب عودتها إلى الحياة بعد كل موت وما أن تتم طهارة

الروح، لا يرجع الإنسان للحياة الأرضية من جديد وإنما يذهب إلى السماء حيث السعادة الحقة والنعيم المقيم.

بعد أن أنصت جوتاما إلى هذه التعاليم، لم يجد فيها بغيته، لأن المجاهدات الجسمية والشعائر الدينية لا توصل إلى السعادة، فإذا كان اللهو والمجون. والخلاعة لا تجلب الطهارة الروحية، فإن القلب الطاهر لا يمكن أن يعيش سعيداً في جسد معذب، ومعرض للشيخوخة والمرض والموت. وإذا كان التعذيب ينقي الروح من أشرار الجسد ويمنع الإنسان من أن يولد في حياة أرضية مرة أخرى، إلا أنه يولد في السماء، ولكن جوتاما ينشد الخلاص من الحياة نهائياً، بذلك فقط يستطيع أن يتغلب على الشيخوخة والمرض والموت، ويقطع صلته بالولادة والموت كلية، سواء أكانت هذه الولادة في الأرض أو في السماء. ولما أحس كبير الزهاد بأن جوتاما لم يتقبل تعاليمهم. وأنه ما زال في حاجة إلى معرفة أعمق وأن ايمانه بالمجاهدات والشعائر ضعيف، نصحه بأن يقصد أراداراما وأدراراما، وهما ناسكان ثقافتهما الدينية واسعة، ولها با ع طويل في المجاهدات، وبلغا درجة ممتازة من الطهارة والصفاء. ولم يتردد جوتاما في الذهاب إليهما. لأنه ينشد العلم الصحيح الذي يحقق له سبيل الخلاص من الشيخوخة والمرض والموت.

ولكن بينما هو في طريقه إليهما قابل وزير أبيه وكبير كهنة القصر اللذين أرسلهما إليه سودهودا ليقنعاه بالعودة. بعد تبادل التحية أخذ الوزير سادهارما والكاهن بوروهينا يجادلانه في أمر رجوعه إلى أبيه. بدأ الوزير سادهارما الحديث بأن أخبره عن عظم ألم أبيه وفجيعة زوجته، وعن

الأسى الذي عم أهل ساكيا عندما شاع نبأ هجرته للبلاد، واختياره حياة الزهد في الغابات، ثم أعلن الوزير عن حزنه لرؤية جوتاما مرتدياً ملابس بالية خشنة وهو أمير عاش طوال عمره حياة ناعمة وتعود الراحة والاستقرار، والجدير به أن يخلع هذه الملابس، ويطيع أمر والده ويعود إليه، إذ عليه واجبات جسام نحو مهام الحكم وأهل ساكيا. فرد جوتاما على الوزير بأنه لم يعض والده إلا خوفاً من الشيخوخة والمرض والموت، ورغبة في التخلص من توالي الموت والولادة، وأن حزن أبيه لفراقه لا داعي له، لأننا نتقابل في الحياة لفترة معينة ثم يفرق بيننا الموت، فلا يجب أن تجعل الأوهام تتسلط علينا، ونترك الحزن يستولى على مشاعرنا. أما طلب العودة لكي ينتظر اليوم الذي سيعهد إليه فيه بمهام الحكم فكيف يقوم بهذه المهام بينما يجهل حقيقة الحياة ويعيش نهبة الشيخوخة والمرض والموت، وكيف ينصرف عن البحث عن طريق الخلاص، وينغمس في ملاذ الحياة التي تزيد من شقائه. فما كان من الكاهن بوروهينا إلا أن أخبره بأنه إذا كان يقصد أن يحيا حياة دينية طاهرة بعيدة عن الملذات فما الذي يمنعه من أن يجمع بين هذه الحياة وبين الحياة بالقرب من أهله وفي وطنه فإنه يستطيع أن يتزود بشتى التعاليم الدينية ويؤدي الشعائر دون أن يهجر الدنيا ويعيش هائماً في الغابات يرتدي ملابس خشنة ويستجدي قوته؛ وقد يظن أن في عودته إلى ذويه نوعاً من الهزيمة والتراجع، إلا أن هناك كثيراً من الأمراء قد سبقوه في هجرة الملذات، ورغبوا في حياة طاهرة، وعاشوا حياة دينية نقية دون أن يهجروا أهاليهم. ولكن جوتاما أجاب بأن طلب الثقافة الدينية في القصر ليس بالطريق السوي الذي يوصل إلى الخلاص، لأن

الخلاص لا يتحقق بالحياة في القصور الناعمة المترفة، وإنما في الغابات والجبال، وإذا عاد إلى القصر فإنه سيعود إلى حياة الترف التي تغري بطلب الملذات، كما أنه لم يرغب في أن يكون من بين هؤلاء الذين يطلبون الثقافة الدينية وهم في مكاتبهم دون أن ينسوها ممارسة عملية أو لا يسعون في الكشف عن الحق، ويدرسونه دراسة وافية، لما رأى بوروهينا تصميم جوتاما على عدم العودة، رجاه أن يعود إلى أهله بعد أن يحقق غايته، ويصل إلى طريق النجاة فإن الأمير راما بطل ملحمة الرمايانا عاش ردهاً من الزمن في الغابات والكهوف، وتنسك حتى وصل إلى أرقى مرتبة روحية، ولكن حينما علم بما يعانيه وطنه من اضطرابات ومحن عاد مسرعاً إليه، وتولى زمام الحكم، وأعاد الأمن إلى نصابه، وأنقذ البلاد من الفوضى، كما أن هناك أمراء كثيرين سلكوا في أول الأمر طريق الزهد ثم بعد أن حققوا أهدافهم الدينية عادوا آخر الأمر وتولوا الحكم تلبية لنداء الواجب فرد عليه جوتاما بأنه ليس من هؤلاء الذين يهجرون الدنيا ليقضوا حقبة من الزمن زاهدين متقشفين، ثم يعودون إلى ملذات الحياة مرة ثانية ولا يجب أن يؤخذ حياة راما ومن سار سيره مثلاُ أعلى للزاهد الحق الذي يجب أن تؤخذ حياة راما ومن سار سيره مثلاً أعلى للزاهد الحق الذي يريد أن يكشف عن الحقيقة وأن الحكيم لا يسلك سلوكهم، أو يتخذهم قدوة له، إذ ما الذي يدعو الزاهد إلى أن يفسد حياته الملذات بعد أن صار طاهراً نقياً، وأكد له جوتاما بأنه لن يعير من منسكه شيئاً، ولن يعود إلى حياة القصور حتى ولو سقطت الشمس من السماء، واصطدم القمر بالأرض، وانقلبت جبال

الهمالايا رأساً على عقب. وبعد رفض جوتاما العودة رجع الوزير سادهارما والكاهن بوروهينا بعد أن فشلا مهمتهما.

انطلق جوتاما نحو نهر الجنجر، وبعد أن عبره اتجه نحو مدينة راجاجريها عاصمة ملكة ماجادها، والتي يتخذ منها الملك بمبسارا مقر حكومته، وهي مدينة هادئة آمنة، يحيط بها تلال خمسة، في سفوحها عدد من الكهوف، كثيراً ما يلجأ إليها الزهاد والنساك. وما أن دخل جوتاما مدينة راجاجريها بطلعته البهية، وقوامه المعتدل، وشبابه الفتان حتى أثار اهتمام الأهالي، وتعجبوا من فتى في شرخ الشباب يرتدي ملابس الزهاد البالية، بينما تبدو عليه ملامح النبل والعز والجاه، فالتف حوله الرجال والنساء عارضين عليه الضيافة، ومشفقين عليه من قسوة التقشف، وأخذوا يسيرون خلقه حتى كونوا موكباً كبيراً لفت أنظار الملك بمبسارا، وهو في برجه المرتفع يراقب أحوال رعيته، وطلب من رجال حاشيته أن يأتوه بأخبار ذلك القادم الغريب، وسبب التفاف الجماهير حوله. فعلم أن جوتاما ابن الملك سودهودانا قد هجر الحياة مفضلاً عليها الزهد والتقشف، وقد أثار مظهره التقى الورع أفراد الشعب، ولكنهم أشفقوا على شبابه، وبهرهم حسن طلعته ونبل محياه، فتنافسوا في الفوز بشرف ضيافته، ولكنه لم يقبل من أحد ضيافه وإنما أخذ يطرق الأبواب مستجدياً قوته، ثم عاد إلى الغابة المجاورة، وأكل مما جمعه من صدقات، وشرب من مياه النهر، وسكن غارا في سفح أحد التلال القريبة بالمدينة.

ولقد أثارت تصرفات جوتاما عناية الملك بمسبارا، وأسف أشد الأسف للمصير الذي آل إليه الأمير جوتاما، فقرر أن يزوره في مغارته، لعله يستطيع أن يقنعه بأن يقلع عن حياة الزهد، ويعود إلى سيرته الأولى في قصر أبيه. فسار إليه في ركب يحف به آلاف الأهالي. ولما وصل بادره بالتحية، فرد جوتاما تحيته، ثم أخذ يتبادلان الحديث. ولما تأكد من أنه جوتاما ابن الملك سودهودانا حقاً، أخذ يلومه على ارتدائه ملابس خشنة بالية بينما هو جميل الخلقة. حسن القوام جدير بالثياب الفاخرة والجواهر الثمينة؛ وأنبه على استجداء الطعام، لأن الاستجداء لا يليق بنسل الملوك الذين يجب أن يقيموا في القصور وليس في الكهوف؛ فرجاه أن يعود إلى أهله أو يقاسمه ملك دولته مع عنايته بالدين والتقشف. لأن أصالة النسب والحسب. وعظم الجاه والسلطان مدعاة للقوة، وأن جمال الخلقة وحسن الطلعة واعتدال القوام وبهاء المظهر يكسب المرء هيبة ونبلاً، وأن القوة والهيبة والنبل والشرف تعين على اخضاع الآخرين أو التفوق عليهم، وتحث على نيل ثناء الجميع وجذب اعجابهم؛ وتجلب شهرة سرعان ما تنتشر في شتى الأرجاء. وما الذي يعيب الرجل الفاضل التقي الورع إذا احتمى بالنسب والحسب، وعمل على قهر الممالك التي تخرج عن سيادته، واجتهد في تنمية الثروة، وأخذ نصيبه من متع الأرض...؟ فإن الحكيم هو الذي يجمع بين معرفة الدين واتباع الفضيلة، وبين طلب القوة وتنمية المال والتمتع باللذات. فإن الرجل الفاضل المتدين الذي يهمل المال، ويحتقر اللذة محروم من متع الأرض وإن الرجل الذي يقضي حياته في جمع المال محروم من نعيم المتع الروحية؛ أما الرجل الفقير الجاهل بأمور الدين

المنصرف عن هدى الفضائل فمحروم من متع الأرض ومتع السماء على حد سواء، والحكيم الحق هو الذي يجمع بين مطالب الأرض ومطالب السماء لا يغفل أحدهما، أو يفضل أحدهما ، ويمكن للإنسان إذا ما تقدم به السن ونال كفايته من متع الأرض أن يتصرف كلية لي الحياة الروحية الخالصة.

فرد جوتامو على بمبسارا بأن الفضيلة والشهوة لا تجتمعان إذ كيف يهتدي سلوك الإنسان بالفضال، بينما تتحكم فيه الأهواء؟ إن الشهوة تجري وراء اللذة، وتضحي في سبيلها بكل القيم والفضائل بل أنها تسوق الإنسان سوقاً للإثم وهي لا تقف عند حد، وتطلب على الدوام مزيداً من اللذة، فتؤدي بالإنسان في النهاية إلى هاوية سحيقة، فإن هناك كثيراً من الملوك والحكام دفعهم الجشع والرغبة في السيطرة على ما يجاورهم من ممالك إلى اقتراف كثير من الأوزار البشعة. بل إن دأبهم في البحث عن المال، وطموحهم في الاستيلاء على البلاد المجاورة أدى بكثير منهم إلى الهلاك. وإن رجال الدين والزهاد الذين حادوا عن طريقهم، واستهوتهم مغريات الحياة، وأسرتهم فتنة النساء، وحاولوا أن يجمعوا بين الدين والدنيا، لا شك في أنهم تعثروا في الطريق، لأن الزاهد الحق لا يشتهي، ولا يطمع في شيء ويفضل التقشف ليحطم كل ما يفتعل في داخله من رغبات وشهوات، حتى تصبح عاجزة على أن تغريه كل يوم بلدة جديدة، فلا يشعر بتلك الآلام المريرة عندما يفشل في تحقيق رغبة. والحكيم الحق هو الذي يتجنب هذه الآلام بأن يعطل نشاط شهواته شيئاً فشيئاً إلى أن

يقضي عليها قضاء تاماً في آخر الأمر. إن الشهوة خطر وبيل يهدد كيان الحياة، فإنها تدفع الصديق إلى كراهية صديقه، وترغم الأخ على قتل أخيه.

أما الرجل الذي يبذل قسطاً من حياته في جميع الثروات، ويحسن استغلالها، ويجيد انفاقها. فقد يكون رجلاً فاضلاً ولكن الثروة متاع زائل، وأن من يكثر من المال ليحتفظ به ولا يتمتع به فوجود المال عندئذ مثل عدمه، والرجل الفاضل حقاً من يبذله ماله– إذا كان غنياً– في العطاء لأن في الإحسان كسباً وثراء يفوق غنم المال؛ وقد يكون الملك بمبسارا كريماً ومحسناً كبيراً بشبعه، ولكن جوتاما لا يريد أن يبقى مالاً ليتفضل به على الغير؛ لأنه ينشد الخلاص من توالي الولادات ويريد أن يبعد عن غوائل الشيخوخة والمرض. فالمال لا يهم جوتاما من بعيد أو قريب لأنه لا يحقق هذه الغاية وينقذه من مآسي الحياة وويلاتها ويبلغه السعادة المنشودة.

ثم انتقل جوتاما إلى موضوع الحسب والنسب فقال إن شرف المنبت، وعراقة الأصل، وبهاء الخلقة وحسن الهندام لا تدعو للتفاخر لأنه ليس للمرء فيها فضل، إنما هي موروثة منذ أجيال، ولا تمنح إلا نبلاً زائفاً. ولذلك هجر جوتاما القصور، واستغنى عن شرف الحسب ونبل النسب وفضل الحياة في الغابات، ولم يهتم بالطعام إلا بالقدر الذي يبعد عنه غوائل الجوع والعطش، وخلع الملابس الفاخرة وارتدى الملابس التي تحمي جسده من البرد والحر، وأقام في الكهوف لأنها تكفل له الراحة والنوم الهادئ. فحياة الزهد والتقشف حياة آمنة لا تغري بالانغماس في اللهو، ولا تحف بها الآلام والأحزان. لذلك هجر جوتاما الدنيا بما فيها، وفضل الزهد على

سطوة الحسب، وجاء السلطان، وثروة الحكام. ولقد وطد العزم على ألا يرجع إلى حياته الأولى، وأنه لا فائدة من الإلحاح عليه في العودة إلى أبيه، أو مشاركة بمبسار ايف ملكه، فإن الثري لا يتمنى أن يكون فقيراً، وإن المتعلم لا يرضي أن يصبح جاهلاً، وكذلك لا يقبل الزاهد التقي الورع المتقشف أن يعيش في المجتمعات الصاخبة اللاهية الفاتنة. ثم عرض جوتاما على بمبسارا أن يقاسمه حياة الزهد، ويشاركه في التقشف، فإن هذا العرض أفضل من مشاركته في الحكم، وأجل من الانغماس في الحياة الدنيا، ولا يجب أن يتأخر في هجرة الحياة مدعياً أنه ما زال في سن مبكر، وينتظر إلى أن يتقدم به السن ثم يهجر الحياة، إذ من يضمن له أنه سيعيش إلى أن يتقدم به السن ثم يهجر الحياة، إذ من يضمن له أنه سيعيش إلى أن يتقدم به السن، فإن الموت واقف لنا بالمرصاد، وليس له ميعاد، يقتحمنا في أية لحظة ويسلب حياتنا في سرعة البرق، فيجب أن نهجر الحياة من الآن لا الغد، لأن الحياة عرضه للزوال. وقد يظن البعض أن تقرب القرابين إلى الآلهة، وذبح الذبائح لها قد يطيل من العمر. ولكن هذا العمل كريه في ذاته، إذ كيف تهلك حياة لتبقى حياة؟ وكيف نلجأ إلى القتل لنطيل العمر؟ فليس للزهد موعد، وأن من ينشد الخلاص من توالي الولادات لا ينتظر للغد، وإنما يبدأ بهجرة الحياة في الحال.

بعد أن انتهت هذه المناقشة، استأذن جوتاما من بمبسارا ليستأنف السير باحثاً عن الزاهدين اللذين سمع أن عندهما المعرفة الحقة التي تهديه إلى السعادة وطريق الخلاص. فلم يحل بمبسارا دون ذهابه، ولم يستعن بسلطته

لحجزه وإرغمائه على الاندماج في الحياة، وذلك لإعجابه بحكمته، وعمق روحيته، وإن كان يود أن يبقى جوتاما في رحاب قصوره اشفاقاً على شبابه من قسوة الزهد وخشونة التقشف.

وما أن وصل جوتاما مغارة الزاهد أرادارام حتى أحسن الناسك استقباله، وحياه أجمل تحية، ثم جلسا، والتف حولهما مريدو أرادارام وأتباعه. ولما عرفوا أنه حديث العهد بالتنسك وطدوا من عزمه، وحثوه على التمسك بحياته الجديدة. إلا أن جوتاما بادرهم بسؤاله الذي حير الجميع، وهو كيفية الخلاص من توالي الولادات حتى لا يعاني مرارات الشيخوخة والمرض والموت. فرد أرادا بأن طريق الخلاص يقوم في طلب المعرفة الحقة، والتمسك بحياة روحية طاهرة، إذ أن المعرفة والكهارة تهيئ للفرد حياة هادئة آمنة بعيدة في براهما كبير الآلهة. فما كان من جوتاما إلا أن طلب من أرادا أن يزوده بالمعرفة الحقة، وأن يخبره عن سبل الحياة الطاهرة، وأن يوضح له حقيقة الحياة في براهما. ففقال أرادا إن المعرفة الحقة هي أن تعرف أن هناك وجوداً واحداً هو براهما، وأن كل ما يبدو في الوجود من تنوع وكثرة وليس إلا مظاهر مختلفة لحقيقة واحدة هي حقيقة براهما السرمدية التي تكمن في جميع محتويات الكون من جماد ونبات وحيوان وإنسان، وأن ما نراه من اختلاف في الكون، وتغير في الطبيعة يرجع إلى جهلنا بحقيقة براهما، الذي يجعلنا نرى التعدد في الوجود لأنه ليس هناك إلا حقيقة واحدة. إلا أن مجرد معرفة هذه الحقيقة لا يكفي لكي يخلص الإنسان من دائرة الولادات. وإنما يجب الإيمان بها كذلك. ولا نستطيع أن نؤمن بها عن صدق إلا إذا تأصلت في أغوار النفس، وسيطرت

سيطرة تامة على كل ما يرد على الذهن من أفكار، وتحكمت تحكماً مطلقاً في كل ما يصدر عن المرء من أقوال وأفعال، أما إذا كان للشهوة أثر في الفكر، فقد يضعف الإيمان بحقيقة براهما: الفردة، فينحرف السلوك عن جادة الطهارة، وقد يساق الإنسان إلى الإثم فلكي يأمن طالب الحقيقة شر غواية الشهوة، يجب أن يقطع صلته بكل ما يربطه بالأرض من علاقات، حتى لا تستهويه مفاتن الدنيا وملاذ الحياة، ويعتزل المجتمعات في ركن هادئ ناء غير بعيد عن القرى التي قد يلجأ إليها ليسأل أهلها الطعام. ثم يأخذ في دراسة التعاليم الفيدية في سكينة وعمق، وفي أداء الشعائر الفيدية بإتقان في مواعيد رتيبة، كما يقوم بممارسة أضراب قاسية من المجاهدة والتعذيب الجسدي، الغرض منها القضاء على قوة الشهوة والسيطرة على الحواس، واتاحة الفرص ليتغلب العقل على الأهواء، فيصفو الذهن، ولا ينشغل بمطالب الدنيا، وينصرف بكليته إلى تأمل الواحد حتى لا يحس بأن هناك انفصالاً بينه وبين براهما؛ وأنهما حقيقة واحدة، فيولد بعد الموت في سماوات براهما. وإذا ما واصل التنسك يعيش بعد كل ولادة عيشة أفضل وأسعد من التي سبقتها، ويصعد بعد كل موت إلى أن يبلغ ذروة الكمال المطلق، وتتخلص روحه نهائياً من كل ما يتعلق بالمادة فلا تعود إلى الحياة مرة أخرى، وتتحد ببراهما.

لم يتعرض جوتاما على كل ما زوده به أرادا من تعاليم الديانة البرهمانية، وما علمه اياه من الشعائر الفيدية، وما عرف به من عقائد اليوبانيشاد، وإنما اعترض على كيفية تحرر الروح من الجسد تحرراً تاماً يكفل لها الاندماج في براهما، أي اعترض على هدف الديانة البرهمانية التي تؤمن

بوحدانية الوجود وترى أن سلوك الانسان يجب أن يهدف إلى تحقيق اتحاد الخالق بالمخلوقات. وتساءل جوتاما عن ماهية الروح التي تبقى بعد أن تتحرر من الجسد. إذ كيف تخرج الروح من الجسد، ثم تبقى شخصية الإنسان كما هي دون أن تتغير؟ فإن النار عندما تفقد حرارتها لا يمكن أن تسمى ناراً وكذلك إذا خرجت روح الإنسان من جسده لا يمكن أن يسمى انساناً. وإذا زعم بأن العازف لبراهما يمكن لروحه بعد أن تتحرر من البدن أن تبقى في براهما، ولكن كيف تبقى شخصية العارف في براهما في الوقت الذي تحطمت فيه ذاتيته؟ وإذا ادعى بأنه عندما يندمج العارف في براهما لا يكون هناك حقيقتان منفصلتان: حقيقة معروفة، وحقيقة عارفة، وإنما حقيقة واحدة هي براهما، ولكن كيف يكون براهما حقيقة معروفة في الوقت الذي تذوب فيه شخصيات عارفة؟

ولذلك لم يجد جوتاما في دروس أرادا ما يؤكد أن الروح يمكن أن تتخلص من الجسد نهائياً دون أ، يقضي ذلك على ذاتية الإنسان، أو ما يؤكد أن شخصية الإنسان تتلاشى نهائياً في براهما. وأحس بأنه ما زال هناك شك يدعو إلى الاعتقاد بأن الشخصية الذاتية تبقى في النهاية، ومادام هناك شخصية، فهناك ترجيح للولادة، وإمكان للعودة إلى الحياة من جديد، ومقاساة الشيخوخة والمرض والموت، فلا نعجب إذ لم يقتنع جوتاما بآراء أرادا. ولقد نصح أرادا جوتاما بأن يتوجه إلى الناسك أدرا راما لعله ينجح في زيادة الإيضاح، وتقريب حقيقة فناء الروح في براهما إلى ذهنه. فأخبره أدرا بأن هدف الزاهد تخليص إنيته من المادة حتى تقتصر على فكر أو لا فكر، ثم لا يبقى لها وجود، فلا تعود إلى الحياة من جديد، وتظل على الدوام متحدة

ببراهما. ولكن جوتاما لم يستطع أن يدرك أن شخصيه الفرد أو إنيته الذاتية يمكن أن تزول زوالاً تاماً، وأعتقد بأن لها على الدوام وجوداً مستقلاً يدعوا إلى عودتها إلى الحياة من جديد.

وبعد أن ألم جوتاما بثقافة عصره الدينية، وأخذ العلم على كبار النساك وجد نفسه ما زال لا يعرف شيئاً عن طريق الخلاص وسبيل السعادة الذي هجر الدنيا من أجله، ولم يبق أمامه إلا أن يسلك سبل المجاهدة التي تنتشر بين عامة النساك وأن يأخذ في تعذيب جسده تعذيباً مضنياً لعله يقضي على ما يكمن فيه من نزوات وأهواء، فيكتسب قوى خلقية خارقة، وشف بصيرته حتى يتكشف له سبل النجاة. فتوجه جوتاما إلى غابة أورفيلاء، وسكن في غار هادئ يتدفق أمامه مجرى من الماء العذب يتجه نحو قرية كثيراً ما كان يلجأ جوتاما حين يعوزه القوت، ويستجدي من أهلها ما يلزمه من طعام. وكان هذا الغار في سفح مرتفع تحيط به أشجار باسقة، يلذ للطيور أن تنتقل على أفنائها، وتغرد على أغصانها، كما كان يتخلل هذه الأشجار شجيرات ناضرة يفوح أريج أزهارها بأطيب الروائح الزكية. وعزم جوتاما أن يعذب جسده في هذا الكهف الهادئ الذي سخت عليه الطبيعة بمناظر خلابة، وصمم على أن يميت أي انفعال، ويزهق كل عاطفة. ويقضي على جميع نزواته حتى يتطهر تطهيراً كاملاً، وبصفو طويته من شوائب الشهوة ولم يترك سلاً معروفة لتعذيب الجسد إلا سلكها. فعذب جسده بالجوع والعطش، وأحياناً ما كان يمتنع عن التنفس، أو يلزم أطرافه مواضع معينة ر يغيرها أياماً كثيرة، فتقرب إليه خمسة مريدين، واتخذوه لهم رائداً، وقاموا بخدمته، وذلك بعد أن أعجبوا بقدرته الفائقة على تحمل مشاق المجاهدة المؤلمة

ولقد ذاعت شهرته في جميع الآفاق، وشهد له الجميع بالتفوق على كل من سلك طرق التعذيب. واستمر في معاناة آلام التعذيب فترة طويلة دامت ست سنوات متتالية حتى يضمر جسمه، وهزل قوامه، وبرزت عظامه، ولكنه بعد طول هذا العناء والنصب لم يصل إلى شيء، ولم يحقق غايته، فلم يجد العلم في تنوير ذهنه إلى طريق السعادة، ولم ينفع تعذيب الجسد في تبصيره بالوسيلة التي تنجيه من توالي الولادات، ألا يدعوه ذلك إلى اليأس، ويشعره بأن هربه من الحياة كان عملاً خاطئاً، وأنه يبحث عن المستحيل؟ وما جدوى استمراره في تحمل آلام الجوع والعطش وتعذيب البدن؟ إنه كثيراً ما كان يغيب عن وعيه من شدة الجوع، ومن قسوة المجاهدات التي تهلك قوى البدن دون طائل حتى إذا فقد وعيه ذات مرة وظل في غيبوبة دامت وقتاً طويلاً حتى ظن مريدوه أنه فارق الحياة، ولكن كانت دهشتهم عظيمة عندما أكل وشرب على غير عادة بعد أن أفاق. لقد صمم جوتاما أن يتخلى عن تعذيب الجسد، إذ أدرك أن الجسد الهزيل والفكر المعذب، والقوى المحطمة لا يمكن أن تعرف الطريق الذي يحررها من سلسلة الولادات، بل إن قسوة المجاهدة تشل التفكير، وتميت الحيوية، وتعطل أي نشاط. وشاء في هذا اليوم أن امرأة كانت تسكن القرية المجاورة وكان قد سبق لها أن نذرت أن تهب الزاهد جوتاما قدراً مليئاً بالأرز والحليب إذا أنجبت طفلاً ذكراً، وقد رزقت بالطفل الذكر، فأرادت أن تفي بالنذر، وجلبت ذلك القدر المليء بالأرز والحليب لجوتاما، فأكل منه حتى استعاد حيويته، وعاد إليه نشاطه، وما أن شاهد المريدون تصرفات جوتاما حتى خاب أملهم فيه، وتبدل تعظيمهم له إلى احتقار، وأدركوا أنه فشل في تحقيق هدفه فتخاذلت ارادته، وعجز عن مواصلة التعذيب والمجاهدة، فتنكروا له وهجروه غير آسفين.

ولقد اضطرب جوتاما أشد الاضطراب عندما نبذه مريدوه، وانتابته نوبات من الحيرة والشك والارتياب حتى فكر في العودة إلى أهله، انهم ينتظرونه، وعلى استعداد تام لاستقباله بالبشر والسرور، ولكن هل يقبل الفشل..؟ لقد هجر الحياة ليحقق غايته، فيجب أن يواصل البحث عن هذه الغاية. فجلس القرفصاء تحت شجرة تين مصمماً على ألا يغادر هذا المكان حتى ينكشف له طريق النجاة أو يموت. إلا أن جلسته لم تكن هادئة مريحة إذ أخذ ينتابه حنين لأهله وزوجته وابنه؛ واستبدت به رغبة ملحة في العودة إلى حياة القصور بما فيها من لذة ومتعة. وأخذت تصور له الأهواء استحالة التخلص من الشيخوخة والمرض والموت، وأنه يجري وراء وهم خادع. ولكنه قاوم هذه الأهواء وتلك الرغبات وحاربها بلا هوادة ولقد تعاونت الطبيعة الهائجة مع شهواته على بذر بذور اليأس في داخله لتقلعه عن تحقيق حياة لا تعرف الشيخوخة والمرض والموت، فإذا بالعواصف تهب، فتهطل عليه الأمطار الغزيرة، ولكنه لم يتزحزح من مكانه، وتقذف الريح الغبار في عينيه، وتحدث أصواتاً رهيبة مرعبة، ولكنه كما قاوم أهواءه الشريرة، صمد في وجه الطبيعة الثائرة سبعة أيام بلياليها؛ وكانت ارادته أقوى من شهواته وأقوى من تقلبات الطبيعة فلم يأت مساء الليلة السابعة إلى وقد اتضح لجوتاما حقيقة الحياة، وعرف سبيل النجاة، وأدرك أين توجد السعادة الحقة. فأستنار ذهنه لكل ما كان غائباً عنه، ولم يعد جوتاما شخصاً عاديا، أو زاهداً بسيطاً، وإنما أصبح "بوذا" أي المستنير الذي تبين له سر الألم في الحياة، واهتدى إلى كيفية الخلاص منه، وتحقيق حياة لا تعرف الآلام والمسرات لأنها فوق الآلام والمسرات.

الفصل الرابع

طريق الخلاص

أخيراً اطمأن جوتاما على مصيره، وحق له أن يهدأ ويستقر بعد أن عرف الطريق الذي يحول دون عودته للحياة من جديد. إلا أنه لم يعرف طريق الخلاص إلا بعد جهاد شاق طويل مضن: جهاد مع أهله، وجهاد مع شهواته ورغباته، وجهاد في طلب المعرفة، وجهاد في تمحيص هذه المعرفة، وجهاد في مناضلة ما دب فيه من يأس وقنوط، وجهاد في مقاومة ما اعتراه من شك وريبة، ثم تصميم أخير إلى بلوغ الحق ومعرفة طريق الخلاص أو يستشهد دونه. ولقد وفق في جلسته الأخيرة تحت شجرة التين إلى الاهتداء إلى طريق الخلاص، بينما كيانه كله كان يدور في دوامة من الرغبات والشكوك، ولقد وفق في التغلب على هذه الشكوك بينما تحيطه طبيعة هوجاء تبعث فيه الفزع والقلق فعرف طريق الاستقرار وهو في خضم متقلب من الأهواء، وعرف طريق النجاة وكل ما حوله يوهم بالهلاك.

وقد يظن أن طريق الخلاص قد طرأ على خاطر جوتاما فجأة دون مقدمات سابقة، وأن جلسته الأخيرة هي التي هيأت له وضع أسس الخلاص دفعة واحدة، ولكن لا شك أن فلسفة جوتاما الدينية ما هي إلا تعبير صادق عن خلاصة تجاربه الروحية والدينية واتصالاته الاجتماعية. لقد أحس جوتاما منذ الصغر بما يشوب الحياة من نكد وكد ونصب

وتعب، وشعر بما يصاب به الإنسان من مصائب تبتليه بالشيخوخة والمرض والموت فأوحت إليه مشاهداته، وأهدته خبرته إلى أن الحياة أساسها الألم، ولا تبعث إلا على الحزن، وهي سلسلة لا تنتهي من المخاوف والعذاب لا يستطيع أن يتخلص منها أحد ما لم يبحث عن علة هذا الألم ويدرك أسبابه الحقيقية. فعرف جوتاما أن علة ما يعانيه من الألم يرجع إلى الجهل أولاً وقبل كل شيء؛ ثم إلى الشهوة خصوصاً شهوة الحياة التي تسبب الولادة بعد كل موت. فإن الجهل يدفعنا إلى حب الحياة والتعلق بمفاتنها، وتمعن الشهوة في طلب المزيد من اللذة والمتعة. وذلك يسوق إلى اقتراف الخطايا والآثام، ويشجع على الاعتداء على الآخرين طمعاً في ارضاء نزوات وأهواء لا تعرف الرضا. بينما الأفعال الآثمة هي التي تحدد الحياة المقبلة أي هي التي تربط الإنسان بالأرض وتسبب عودته إلى الحياة بعد كل موت، يعاني فيها الشقاء والحزن والخوف والشك والقلق.

أما من يعرف أن الجهل هو سبب شقائه، وعلة عودته إلى الحياة، فيجب أن يبحث عن المعرفة الحقة التي تمحو جهله، ليتخلص من الآلام، لأن القضاء على الآلام فيه قضاء على النتائج. فالقضاء على الجهل فيه قضاء على شتى صور الألم، وإن المعرفة الحقة هي التي ترحمنا من قسوة الآلام. وتتكون المعرفة الحقة من حقائق أربع هي:

١- إن الحياة تقوم على الألم.

٢- إن علة هذا الألم هو تعلق الشهوة بالحياة.

٣- إن استئصال رغبة حب الحياة فيه استئصال للألم.

٤- إن اتباع الطريق المثمن كفيل بالقضاء على حب الحياة.

ويجب أن يعرف الفرد هذه الحقائق الأربع بمطلق حريته دون أن تفرض عليه من قوة أرضية أو من تعاليم سماوية، ويؤمن بها طواعية دون إلزام، لأن المعرفة أساس طريق الخلاص، فمن يجبر على الإيمان بمعرفة قد يشك فيها، والشك يعوق النجاة من الآلام. كما أنه مجرد معرفة الحقائق الأربع، والاعتقاد في صدقها لا يكفي للتحرر من توالي الولادات، لأن معرفتها هو بداية طريق الخلاص، وأن التزام هدى الطريق المثمن هو الذي ينجي من الآلام؛ وينقسم هذا الطريق إلى ثماني شعب وهي:

١- العقيدة الصادقة.

٢- النية الصادقة.

٣- القول الطيب.

٤- الفعل الحسن.

٥- العيش السوي.

٦- الجهد القيم.

٧- الوعي السليم.

٨- التأمل الصالح.

ولم يجد جوتاما أن هناك أفضل من عقيدته التي تقوم على الإيمان بالحقائق الأربع، وعدم الارتباط بوجود الروح الفردية أو الروح الكبرى؛

وأن ما يتناسخ ليست الأرواح المزعومة. فإذا آمن أحد بهذه العقيدة لا يكفي طالما كان سلوك الفرد غير فاضل، ولذلك يجب أن يكون صافي النية، طاهر الطوية، لا يكن للغير أي شر أو حقد أو حسد، يحب خير الجميع ويعمل لخير الغير على الدوام. وذلك لا يتحقق ما لم يكن حلو الحديث. يتجنب الكذب والنفاق والرياء والنميمة والغيبة، يتوخى الصدق في القول، ويبعد عن لغو الحديث، فلا يسب أحد سباً يشين سمعته ويخدش كرامته، ولا يعنف في القول. كما يجب أن يكون سلوكه فاضلاً، لا يأتي منكر الأفعال؛ ولا يعتدي على حقوق الغير، لا يقتل أي كائن حي، ولا يسرق، ولا يغش، ولا يتعاطى الخمور والمخدرات، ولا يزني. لأن اجتناب مثل هذه الأفعال المشينة يقوم سلوك الفرد، ويكسبه فضائل خلقية، وخصال حميدة تهيئ له عيشة صالحة سوية. تعينه على اتباع طريق وسط لا يتمادى فيه في طلب الملذات الحثية أو المغالاة في تعذيب الجسد. ويقوم بجهد قيم فلا يقوم بصلوات أو يتلو عبادات، ولا يهتم بأداء أي نوع من الطقوس والشعائر، ولا يضيع وقته في طلب رحمة إله أو معونة رب، ولا يعتمد على تحقيق مأربه إلا على أفعاله فقط لا غير ويوجه كل جهده نحو تطهير فكرة وتصفية ذهنه فلا يدع للشر سبيلاً إلى عقله ويعمل على تنقيته من كل شر يكون قد تسرب إليه ولا يألو جهداً في اشاعة الخير في طيات الفكر حتى يشمله من كل جانب. وإذا ما طهر الإنسان لسانه وأفعاله وفكره يكون قد وصل إلى مرتبة من الوعي السليم الصالح، فيستطيع أن يتحكم في الانفعالات الجامحة والمشاعر المضطربة والرغبات الملحة والأفكار الشريرة. بفضل ما اكتسب من خصال خلقية عديدة، ومن قوى

ذهنية نبيلة. بذلك يسيطر على نزعاته ونوازعه، ويتغلب على ميوله وأهوائه، ويصل إلى درجة من الطهارة يكون فيها الذهن صافياً صفاءاً تاماً، فيقدر على تنقية عقيدته من الشكوك والريب، وإذا تبدد الشك يقوي الإيمان بالحقائق الأربع وقوة الإيمان تدفع للتخلص من النواقص والعيوب، فيتاح للذهن الصافي فرصة للتأمل الهادئ في الحقيقة المطلعة تأملاً خالياً من كل مؤثر خارجي؛ لا تعوقه رغبة، أو تعرقله شهوة فيسير على الدوام في الطريق المثمن غير المتخاذل حتى يقطع صلته بالوجود، ولا يولد على الإطلاق، لا في الأرض أو في السماء، ويصل إلى النرفانا حيث الهدوء المطلق والسكينة التامة والراحة الكاملة، حيث لا يوجد آلام وأفراح؛ حيث تبلى الشهوات وتنعدم الرغبات وتتلاشى الحواس؛ حيث تصفى المشاعر وتستقر الأفكار حيث السلام الدائم والرضاء المتواصل الذي لا يشوبه الشقاء والحزن والخوف والشك والقلق.

ولا يبلغ الإنسان النرفانا إلا إذا سار في الطريق المثمن إلى آخر مداه ولا يمكن لإنسان أن يقطع هذا الطريق في حياة واحدة، ويحتاج إلى آلاف السنين يتردد خلالها على مختلف الكائنات الحية، وينتقل فيها ما بين الأرض والسماء، ويعمل في كل منها على أن يتخلص شيئاً فشيئاً من النواقص العشر وهي:

١- الوهم.

٢- الشك.

٣- العمل لكسب القوت.

٤- الشهوة الجنسية.

٥- الكراهية والحقد.

٦- حب الحياة الأرضية.

٧- الرغبة في الحياة السماوية.

٨- الكبرياء.

٩- الغرور.

١٠- الجهل.

ويمكن أن يتخلص الإنسان من هذه النواقص بعد أن يمر بمراحل أربع. في أول الأمر يجب أن يهجر الإنسان الحياة، وبقطع صلته بالمجتمعات يستجدي طعامه. ولا يلجأ لعمل ليربح مالاً يقتات منه أو يقوم بعمل يعود عليه بالفائدة بينما يضر الآخرين ثم يتخلص من كل الأوهام التي غرستها شتى الديانات في العقول حتى لا يشك في تعاليم بوذا أو يثق في أثر الشعائر الدينية وتقريب القرابين للآلهة في تحرير الإنسان من الآلام أما إذا أضعف قوى شهواته ورغباته وأحقاده علاوة على الإيمان بالحقائق الأربع والسير في الطريق المثمن فلن يعود إلى الأرض إلا مرة واحدة. وعندما يفضي إلى الشهوة الجنسية والنزعات الشريرة والأنانية فلن يرجع إلى الأرض وقد يعيش في السماء بينما الإنسان الذي تحرر بمجهوده الخاص من كل الرغبات سواء أكانت مادية مثل الرغبات الأرضية والحسية أو غير مادية كالرغبة في التمتع بنعيم الجنة في السماء والحياة بقرب الآلهة، وتحرر

من الغرور والكبرياء والجهل فإنه لن يرجع لا إلى الأرض أو إلى السماء ولن يولد في أجسام أرضية أو في صور إلهية. وإنما يبلغ النرفانا فيخرج من نطاق الألم والسرور، ويصبح فوق الأحزان والأفراح، ولا يأتي من الأفعال ما يربطه بالحياة فيعيش في هدوء تام في الخير المطلق وفي الحكة السرمدية.

لقد عرف بوذا طريق الخلاص الذي يزيل سبة الجهل، ويخمد نيران الشهوات، ويؤدي إلى المعرفة الحقة التي تحميه من شقاء الحياة؛ فرسم البرنامج الذي يقضي على أسباب الشقاء ولكن معرفة الحقائق الأربع واتباع هدى الطريق المثمن، والتخلص من النواقص العشر والسير في مراحل طريق الخلاص الأربع حتى يبلغ منتهاها، ويصل إلى حالة تخلو من الآلام والأحزان.. هل كل هذه الوسائل تحول دون عودة الإنسان من جديد إلى الحياة سواءاً أكانت هذه الحياة في الأرض أو في السماء على صورة إنسان أو على هيئة إله؟ إن طريق بوذا في تحرير الإنسان من الشقاء لا يختلف كثيراً عن طريق الديانات الأخرى المعاصرة له في تحقيق السعادة الحقة. إلا أنه يختلف مع هذه الأديان في انه لم يقم وزناً للشعائر الدينية. وأنكر قيمة الصلوات والعبادات والدعوات وتقريب القرابين في تحرير الإنسان من الإثم والآلام؛ ولم ينخدع بفائدة المجاهدات العنيفة القاسية التي تكيل العذاب للإنسان في تحقيق السعادة بينما يتفق طريق بوذا مع الديانات الأخرى في سعيها الدائب لتطهير البدن من الشر بقهر الرغبات والأهواء والتحلي بالفضائل الخلقية عن طريق الابتعاد عن الحياة، وعدم الانغماس في متعها والاكتفاء باستجداء لقمة العيش يوماً بيوم؛ حتى

تتحقق درجة منه الطهارات الفكرية تمنح الذهن صفاء يتيح له قدرة على التأمل الهادئ الرزين الذي لا يعكره شوائب المادة ونزوات الشهوة.

ولكن حينما ناقش بوذا أستاذيه أرادا، وأدرا علم منهما أن قمع الرغبات وتطهير النفس قد يدعو إلى التحرر من كل ما يتعلق بالأرض؛ فلا يعود بعد الموت إليها، إنما يصعد ويعيش إما في سماوات يراهما أو يتحد ببراهما ويصبحان حقيقة واحدة. ولقد اعترض بوذا بأن الحياة في السماء لا تختلف عن الحياة في الأرض، لأن الحياة تقوم على الألم والشقاء، وأن اشتهاء الحياة في السماوات يدل على حيوية الشهوة وقدرتها على الإغراء وبعث الرغبات. فالحياة في السماء لا تختلف عن الحياة في الأرض ويجب أن تتخلص منهما جميعاً. أما عن القول باتحاد الروح الفردية بروح براهما الكبرى أمر لا يقبله العقل؛ إذ كيف يفقد الفرد شخصيته الذاتية؛ وتنعدم انيته في رحاب روح كبرى؟ لأنه لابد أن توجه الروح الفردية في الروح الكبرى على وجه من الوجوه؛ وهذا الوجود يدعو إلى العودة إلى الحياة من جديد؛ وهذا ما ينبغي بتحرر منه فالاعتقاد بوجود الروح الفردية، والإيمان بإمكان اندماجها في روح براهما فيها ترجيح للعودة إلى الحياة؛ وبذلك لا تقف سلسلة الولادات عند نهاية ولذلك ضحى بوذا بالروح لأنه أدرك أن الإيمان بها قد يقف حائلاً بينه وبين النرفانا وضحى كذلك بالروح الكبرى لأن عقله لم يفهم كنة هذه الروح وطبيعتها، ولم يدرك كيف يمكن أن تتحد بها الأرواح الفردية. فأنكر أن الإنسان مكون من جسد وروح لأنه أخذ ينقب عن الأجزاء التي يتكون منها الإنسان؛ فوجد أنه مكون من مجموعة

من الكيفيات المختلفة لا يوجد بينها الروح؛ فلم يعترف بوجود الروح، وأصر على أن الإنسان لا يخرج عن الكيفيات الآتية:-

أولا: الصفات المادية.

ومنها العناصر الأربعة من تراب وماء ونار وهواء، ومنها أعضاء الحس الخمسة، ومنها كيفيات المادة الأربع من شكل وصوت ورائحة وذوق، وغيرها من العوارض المادية المختلفة كالمكان والحركة والتآكل والتغير والتبدل.

ثانياً: الحواس:

وهي ست حواس: منها الحواس الخمس المعروفة من بصر وسمع وشم وذوق ولمس أما الحاسة السادسة فهي التذكر.

ثالثاً: الأفكار المجردة:

وهي الصور الذهنية للأشياء المحسوسة التي ترد للذهن عن طريق الحواس.

رابعاً: الميول والاتجاهات الفطرية:

وهي ما يتصف به الفرد من ذكاء وغباء ومن غيرية وأنانية، ومن استقامة وقوة شكيمة وفسق وضعف في العزيمة.

خامساً: الفكر:

وهي القوة العاقلة الواعية.

وهذه الكيفيات الخمس تشمل الجسم وأعضاء وقواه الحسية والشعورية والعقلية، وليس بينها ما هو ثابت لا يتغير، ولا تخفي وراءها مبدأ يقومها يسمى الروح. فإن الصفات المادية عرضة للتغير والتبدل، وإن الحواس والذهن كثيراً ما تختلف إدراكاتها بالنسبة للفرد من حين لآخر، لذلك كانت الإحساسات والمشاعر والأفكار متغيرة على الدوام لا تثبت على حال، لأن الجسم متغير وتغير جميع أعضائه ووظائفه وقواه تبعاً لتغيره. والأفكار متغيرة لأنها لا ترد إلى الذهن إلا عن طريق اتصال الحواس المتغيرة بالأشياء الخارجية المتغيرة أيضاً، بل إن الذهن لا يبقى على حالة واحدة في لحظتين متتاليتين، وهو في تدفق مستمر كتدفق تيار النهر الذي لا تستقر قطرة من مياهه في مكان واحد لحظتين متتابعتين. فالذهن في تغير دائم، ولا يظل على حالة واحدة، وليس الذهن إلا مجموع تلك التغيرات المتواصلة التي ليس بينها حقيقة ثابتة مطلقة كالنفس أو الروح. فعند تحليل الإنسان إلى مكوناته الأولى لم يجد بوذا الروح فلم يجد ما يدعو إلى الاعتقاد بوجودها، ورأى أن الروح ليست إلا اسماً لا مسمى له، وأنها وهم باطل لا سند له من الواقع، والإيمان بها يعوق تحرير الإنسان من الحياة. ولذلك لا يجب على أحد أن يتكلف بمشقة أداء الشعائر والمراسيم والطلاسم الدينية أو تقريب القرابين لتطهير الروح من الآثام لأنه ليس هناك روح على الإطلاق حتى نطلب لها الكفارة من أجل الطهارة. وإذا عجز بوذا عن

العثور عن الروح الفردية في الإنسان، لا شك أنه عاجز أيضاً عن العثور على روح براهما الكبرى في رحاب الكون، وزعم أن الجدل في سبيل التدليل على وجودها ضرب من العبث لا يثير إلا مشكلات لفظية، ونوعاً من الأحرار لا يؤدي إلى حقائق حاسمة، ولذلك يجب أن نتجنب الحديث عن الروح الفردية، وأن نمتنع عن الدخول في مناقشات حول الروح الكبرى حتى لا نتعب عقولنا بأمور عقيمة الجدوى.

ولكن كيف يتفق انكار وجود الروح مع الإيمان بالتناسخ، العرف المتداول بين الهنود هو أن الروح هي التي تتناسخ، وتنتقل من بدن لبدن، فإن شق على بوذا أن يعثر على الروح في الإنسان، فكان الأولى به أن ينكر التناسخ كذلك، إذ ما الذي يولد بعد كل موت؟ وكيف ينتقل الإنسان من حياة إلى حياة أخرى؟ وما الذي يربط حياة بحياة إذا كان جميع كيان الإنسان عرضة للتغير وليس فيه مبدأ ثابت..!؟

إن بوذا الذي ضحى بالروح لا يستطيع أن يضحي بالتناسخ، لأن عقيدة التناسخ، فضلاً عن أنها عقيدة شعبية سيطرت على تفكيره سيطرة تامة منذ الصغر، فهي التي أخافته من الحياة، وهي التي أوهمته بأن آلام الحياة لا تنتهي بالموت، فإن تنكر للتناسخ لكان عليه يتنكر لنضاله التقشفي كذلك منذ أن بدأ بهجرة أهله إلا أن انتهى بالاستنارة تحت شجرة التين. فلا نعجب إذا اعتقد بوذا أن التناسخ حقيقة بديهية لا تحتاج لبرهان أو دليل، ولم ير فيها حقيقة خارجة عن نطاق ادراك العقل البشري، وآمن بها لأنه أحس في داخليته بأنه عاش قبل ذلك مراراً. وكثيراً ما كان

يتذكر قصصاً حدثت له في حياة سابقة، وتذكر أنه ظهر في كثير من الحيوانات من غزلان وقردة وأفيال وخيل وكلاب وفيران، ومن زواحف وثعابين ومن طيور جارحة وبرية ومستأنسة، كما تذكر أنه ظهر في صور بشرية متنوعة، فظهر عشرات المرات في صور العبيد والزراع والتجار والأمراء والملوك والزهاد والملائكة. وبذلك تشهد حياة الفرد الذهنية على أنه سبق أن وجد في الحياة قبل حياته الحالية. فلم ينكر بوذا التناسخ كما أنكر الروح تمشياً مع منطق إنكار كل ما لم يجد له العقل أصلاً واقعياً في الخارج، لأنه لا يستطيع أن ينكر عقيدة شعبية لها آثار عميقة في نظم المجتمع، ورسخت في أذهان الجميع مع مرور الزمن؛ كما أنه لا يستطيع أن ينكر جهاده في التنسك الذي اتخذ من التناسخ موجهاً ورائداً، وإلا كان كل ما بذله من جهد وجهاد ونضال في طلب المعرفة والسعادة لا مسوغ له، وتكبد كل ما قاساه من تعذيب ومجاهدة من غير طائل، وكان سعيه في طلب النجاة نهائية من آلام الحياة غير مفهوم. إن رغبته القوية في التخلص من توالي الشيخوخة والمرض والموت هي التي فرضت عليه أن يؤمن بالتناسخ دون أن يبحث عن المبررات العقلية التي تسند حقيقة التناسخ.

فإن كان بوذا يؤمن بالتناسخ؛ إلا أنه ينكر أن الروح هي التي تتناسخ؛ أو هي التي تربط حياة بحياة، وإنما الذي يوصل حياة بحياة هي الكارما التي ليست إلا مجموعة النتائج المرتبة عن سلوك الفرد في ولاداته السابقة، وهي التي تنتقل إلى كل حياة جديدة. وإن الحيوان والإنسان والملائكة جميعاً يموتون ويولدون في صور تحددها الكارما أي أفعال الفرد الماضية وسلوكه السابق في الولادات السالفة؛ فقد يولد الإنسان في صور

أفضل أو أحط حسب الكارما. فالإحساسات الآثمة والأفكار الفاسقة والأفعال الشريرة تحط من نوع الحياة الآتية بعكس تجنب الآثام والفسوق والشر سواء في القول أو في العمل والسير حسب هدى الطريق المثمن يجعل الحياة القادمة خيراً من حياته الحالية. ولذلك يجب على كل فرد أن يركز فكره، ويتأمل تأملاً هادئاً عميقاً حتى يتذكر كل حياة عاشها قبل حياته الحالية، ويعي شتى تفاصيل أفعاله وظروفها حتى يلم بجميع أوزاره في ولاداته السابقة، ليعمل على إزالة آثارها ويتطهر من شرورها إن حياة الإنسان نتيجة حتمية لخطاياه السابقة فهو لذلك مسئول عن حياته الحالية مسئولية تامة. فإنه يمكنه أن يرفع من قيمتها أو يحط من شأنها بأفعاله وسلوكه. فليس للقدر أو للحظ دخل ما فيما يتمتع به من جاه أو سلطان وفضل، وليس للصدفة أو للبخت أثر ما فيما يشقى منه من فقر وجهل وضعة. وليس للعناية السماوية سلطة ما فإن السماء لا تحاسب الإنسان فتعاقبه إذا أذنب وتحسن إليه إذا عمل خيراً. إنما سلوكه وسلوكه فقط هو الذي يعاقبه ويثيبه، وأن نتائج أفعاله هي التي تحدد نوع حياته القادمة. أي أن الكارما هي التي تبعث صورته الجديدة. بل هي الصانع الأول لشتى صور الكائنات الحية. فإن نجح الإنسان في القضاء على الكارما التي ليست إلا تبعة الأفعال أمتنع عن الظهور في صورة من الصور الحية. ولا يمكن القضاء على الكارما إلا بالامتناع عن الأفعال ذاتها سبب وجود الكارما. حتى لا يترتب على هذه الأفعال نتائج تكون كارما جديدة تنتقل من جسم لآخر. وإن السبيل الوحيد الذي يقضي على الكارما هو أولاً: معرفة الحقائق الأربع، وعدم الاعتراف بوجود الله، والإيمان بأن الكارما ما

هي التي تتناسخ وليست الروح. ثم اتباع خطى الطريق المثمن ثانياً حتى تتحقق النرفانات بعد أن تتناسخ الكارما على أجسام كثيرة متنوعة، وتردد ما بين الأرض والسماء خلال أحقاب طويلة من الزمن. إن من يصل إلى النرفانا لا يأتي من الأفعال ما يسبب عودته إلى الحياة، فهو لا يأتي خيراً حتى يثاب عليه؛ أو يقترف شراً حتى يعاقب عليه ويظهر في صور من صور الحياة؛ فلا يوجد هناك داع لولادة جديدة، ويمتنع السبب الذي يبعث الحياة؛ فيفات من دائرة الولادات لأنه حطم قوى الشهوى التي ترغب في متع الأرض ونعيم السماء، فهلكت الكارما، وزالت قوة بعثها للحياة ولا يولد أبداً بعد ذلك. وهكذا وصل بوذا للاستنارة بعد أن عرف طريق التخلص من الشهوة بالقضاء على الكارما ما الذي أدى القضاء عليها إلى الامتناع عن الأفعال الخيرة والشريرة جميعاً. وبفناء الكارما يبلغ الإنسان النرفانا حيث لا آلام ولا أفراح حيث الهدوء التام والسكينة المطلقة وهي نهاية الرحلة الإنسانية ونهاية مطاق كل طالب للخلاص من الآلام لأنه لن يولد بعد هذه الحياة، ولأنه بلغ آخر مراحل الحياة حيث لا شيء على الإطلاق، وحيث العدم الذي ليس بعده وجود.

الفصل الخامس

بوذا ينشر دعوته

وما أن اطمأن جوتاما على بلوغ هدفه، وأصبح بوذا المستنير، وتخلص من آلام الحياة، وأدرك أن حياته الحالية هي الحلقة الأخيرة في سلسلة الولادات التي مر بها، وتأكد من أنه لن يولد بعد هذه المرة، لأنه بلغ مرتبة النرفانا التي ليس بعدها موت أو حياة وليس فيها آلام أو أفراح؛ حتى راود عقله أفكاراً متضاربة بخصوص الاحتفاظ بسر الخلاص من آلام الحياة أو إعلانه على الملأ، إذ خشي أن لا يفهم طريق الخلا عامة الناس. لأن بينهم الذكي والغبي، والخير والشرير، المنغمس في لذا الدنيا والمنصرف عنها، المرتبط بالأرض بروابط قوية والمتحرر منها. ولا يمكن أن يفهم النظرية البوذية إلا الحكيم الذكي الخير المسيطر على الشهوات المتحرر من الأهواء والرغبات. ولذلك تردد بوذا في أول الأمر في نشر تعاليمه خوفاً من ألا يفهمها أغلبية الناس، وتضيع جهوده سدى بدون فائدة، وفضل أن يحتفظ بأسرار تعاليمه لنفسه. ولكن ما يغمر الإنسانية من شقاء وبؤس، وما يعانيه الناس من الآلام والأحزان دفعة لأن يسعى لإنقاذ البشرية مما تعيش فيه من عذاب مرير، فعزم على أن يعلن ما وصل إليه من معرفة رحمة بالبشرية وحباً لإخوانه في الإنسانية، ولم يكترث لأي نوع من الصعوبات مستعداً أن يتحمل في سبيل نشر تعاليمه مختلف المتاعب وأن يواجه شتى العقبات، وعقد النية على أن يحرر الإنسان من شهواته

وأهوائه، ويبين له الطريق السوي الذي يقوده إلى النجا من عذاب الأرض، ويهدي الجميع إلى الحق الذي ينقذهم من نكد الحياة.

ثم أخذ بوذا يفكر فيمن يستطيع أن يفهم كنه تعاليمه فهماً صحيح ليبدأ بإعلان هذه التعاليم إليه، فخطر على باله أن يبدأ بإعلان دعوته إلى أستاذه أدراراما الحكيم الذكي الخير الذي بلغ درجة رفيعة من الطهارة والصفاء الذهني. ولكن حينما ذهب إليه وجد أن المنية قد وافته قبل ذهابه بسبعة أيام. فتوجه إلى أستاذه أدراراما وهو لا يقل عن أستاذه الأول ذكاء وطهارة إلا أنه توفى كذلك في مساء اليوم السابق على ذهابه إليه. ثم فكر في أمر المريدين الخمسة الذين قاموا برعايته مدة ست سنوات المجاهدة الشاقة وانفصلوا عنه لرجوعه عن المجاهدات والتعذيب الجسدي. وحيث أنهم يقيمون ببلدة إيسباتانا القريبة من بنارس في غابة الغزال استراح بوذا فترة من الزمن في غابة أورفيلا ثم سار إليهم. ولما اقترب منهم وشاهدوه عن بعد قالوا لبعضهم بعضاً إن جوتاما قد تنكب عن الطريق الحق وانصرف إلى متع الحياة، وتوقف عن المجاهدة والتعذيب الجسدي ورجع إلى الحياة العادية، وقد امتلأ جسمه، وتيقظ حواسه، وجملت تقاطيع وجهه، وهو لا يستحق منهم الاحترام أو التبجيل، ولا يجب أن يظهروا له شيئاً من الترحيب، ولكن حيث أنه من طائفة الكشاتريا ومن أصل طيب ومن نسل الحكام فلا مانع من أن يعرضوا عليه الجلوس معهم فقط لا غير. إلا أنه عندما قدم نحوهم لم يقدروا أن ينفذوا ما قد صمموا عليه وإذا بهم يقفون احتراماً له وانحنوا تعظيماً لمقامه، وأظهروا له كثيراً من الترحيب فأخذ أحدهم بعد وسادة الجلوس، وأحضر آخر الماء ليغسل قدميه وبالغوا في

اكرامه، إلا أنهم كانوا يخاطبونه باسم عائلته العادي، فنبهها إلى أنه لا يجوز مخاطبته باسمه لأنه وصل إلى مرتبة الاستنارة وأصبح بوذا أي المستنير الذي يحيط بالحقائق الأولى وبلغ نهاية طريق الخلاص ولذلك يجب عليهم أن ينادوه باسم بوذا، فتعجب المريديون الخمسة من بلوغ جوتاما مرتبة الاستنارة إذ كيف يصبح بوذا بعد أن أقبل على متع الحياة، وأدبر عن المجاهدة والتعذيب الجسدي!؟ فأخذ بوذا يعرفهم بأفكاره الجديدة في الطريق الوسط الذي لا يغالي في الزهد والتقشف والمجاهدة والرياضة ولا يبالغ كذلك في طلب المتع الأرضية ولا يطلب من الطعام والشراب إلا ما هو ضروري لحياته ويكفل للذهن اليقظة والحيوية والصفاء. ونظراً لقدوم فصل الصيف الممطر اضطر بوذا أن يقيم معهم في غابة الغزال. وكان يتناوب هؤلاء النساك يومياً في استجداء الطعام الذي يأكلونه جميعاً. فكان يبقى يوماً ثلاثة منهم مع بوذا ويذهب الآخران للقرية المجاورة لاستجداء الطعام وفي اليوم التالي يبقى مع بوذا اثنان ويذهب الثلاثة الآخرون لإحضار الطعام فتمكن بوذا من أن يلقن لمن يبقى معه تعاليمه. وبعد خمسة أيام عرف الكل شتى نواحي مذهبه، وآمنوا بصدقها ولقد كانوا عرضة للولادة من جديد فلما أقبلوا على تعاليمه بلغوا مرتبة النرفانا وتحرروا من سلسلة الولادات ونجو من عذاب الحياة.

وكان يعيش في ذلك الوقت تاجر ثري له ابن وحيد شاب يدعى ياسا.. وقد أتاح له والده جميع وسائل المتعة. فانغمس في الملذات، ونعم بسكني ثلاث قصور ينتقل بينها كلما تغير فصلا من فصول السنة. وكان يسكن قصر فصل الصيف الممطر، يحيط به الراقصات والمغنيات. وحدث

أن ضاق ياسا ذرعاً بحياة اللهو، فقام من نومه في ذات يوم مبكراً بعد ليلة صاخبة فشاهد محظياته وهن نائمات فوجد منهن من يغطن في نومهن غطا مزعجاً؛ ومنهن من يسيل اللعاب من فيهن بشكل تشمئز منه النفوس ومنهن من تبعثر شعرهن، واختلطت زينتهن فبدا قبحهن، ولاحظ ياسا ما هن عليه من دمامة وتقزز من منظرهن، فغمرت الكآبة نفسه. فخرج من قصره من غير هدف هائماً على وجهه حتى ذهب بعيداً خارج المدينة واقترب من بلدة إيسباتانا التي بها بوذا والنساك الخمسة. وبينما كان يسير في غابة الغزال كأن يتأوه حزناً وحسرة وألماً، وصدر عنه أنين مكتوم ينم عما يعانيه من عذاب ورغبة في الخلاص منه، فسمع بوذا تأوه وأنينه وشاهد مشته المضطربة القلقة، ولاحظ هيئته الحزينة. فتقدم إليه ودعاه للجلوس ورحب بمقدمه، ثم أخبره بأن عنده ما يريحه مما يعانيه من عذاب وحزن. وأخذ يلقى عليه تعاليمه التي أعادت إليه الاطمئنان.

أثناء تلك الفترة كانت أم ياسا ذهبت إلى حجرة نومه. فلما لم تجده انشغل بالها، وأيقظت والده، وطلبت منه أن يبحث عنه. فأرسل بعض الرجال إلى أركان مدينة بنارس الأربعة. وذهب هو بنفسه إلى بلدة إيسباتانا، فشاهد بوذا والد ياسا عن بعد، ولما اقترب منه رحب به. وفرح التاجر الكبير برؤية ابنه ثم دعاه بوذا للجلوس، وأخذ يلقى عليه كذلك تعاليمه فاقتنع بها التاجر وآمن بها. ولما عاود ياسا الاستماع إلى تعاليم بوذا استنار فكره، ونظرا لأن أعماله في حياته السابقة. كانت فاضلة تحرر من الشهوات بسرعة وبلغ مرتبة النرفانا، وخرج من دائرة الولادات، وأبلغ أباه بأنه لا يستطيع أن يعود إلى حياته السابقة بعد أن وصل إلى الاستنارة.

ولكن والده ألح عليه ليعود لأن والدته تكاد تموت من شدة البكاء والحزن فأخبره بوذا بأن ياسا لا يستطيع أن يعود إلى حياة الشهوات والرغبات بعد أن تحرر منها. فما كان من التاجر الثري إلا أن دعا بوذا وياسا إلى قصره ليقنع بوذا والدة ياسا بذلك. فلما ذهب بوذا وياسا إلى قصر التاجر جلست بجوارهما أم ياسا وزوجته اللتان أخذتا تنصتان إلى أحاديث بوذا التي قصد بها تطهير الذهن وإزالة ما به من أوهام واعداده لقبول تعاليم بوذا. بعد أن أخذت الأم والزوجة في أعداد الطعام وانتهى بوذا من تناوله ألقى عليهما دروساً في الحقائق الأربع وبقية تعاليمه حتى آمنا بها فكانت أم ياسا وزوجته من أوائل النساء اللاتي اعتنقن تعاليم بوذا.

ولما سمع أقرباء ياسا وأصدقاؤه بأنه هجر الحياة وحلق شعر رأسه ولحيته، وارتدى اللباس الأصفر وأصبح زاهداً يشحذ طعامه ذهبوا لمعرفة تعاليم الدين الجديد، فقادهم إلى بوذا، ولما عرفوا منه تعاليمه آمنوا بها، وبلغوا كذلك مرتبة النرفانا. ولما انتشر خبر إيمان ياسا وأقاربه وأصدقائه بدين بوذا أقبل على بوذا عشرات الأهالي ليخلصهم من عذاب الحياة حتى بلغ عدد من اعتنق تعاليمه ووصل إلى مرتبة الاستنارة حوالي واحد وستين فرداً وما أن تأكد بوذا من أنهم عرفوا تعاليمه معرفة تامة واضحة طلب منهم أن يتفرقوا جميعاً– ما عدا ياسا الذي ظل بجوار والدته– في جميع أنحاء البلاد، وينشروا التعاليم البوذية بين الأهالي، ويهدوهم إلى طريق النجاة من عذاب الحياة.

أما بوذا فذهب بمفرده إلى بلدة سيتا التي تقع عند سفوح جبال كياكا بالقرب من غابة أورفيلا حيث يسكن مشاهير الزهاد، وتوجه إلى الناسك كاشيابا الذي يعيش هو وجماعته في هذه الغابة. وكان كاشيابا وجماعته يعبدون الإله كريشنا، ويسجدون للنار. لما طلب منه بوذا أن يقضي الليل عنده لم يكن هناك مكان خال غير غرفة للنار المقدسة، وخاف كاشيابا أن يعرضها على بوذا حتى لا تؤذيه الحية القائمة على حراسة النار. إلا أن بوذا قبل أن ينام في هذه الغرفة بالرغم من أنه يسكنها حية شريرة. وما أن دخل بوذا الغرفة حتى هاجمته الحية، ولكن بوذا ظل هادئاً ساكناً لم يتحرك فلذغته الحية عدة مرات، فأحنى بوذا رأسه فظن كاشيابا أن الحية قد قتلت بوذا. ولما بزع نور الصباح ذهب كاشيابا وأتباعه إلى بوذا، فدهشوا لأنهم وجدوا بوذا ما زال حياً وأن الحية ميتة في طاسة بوذا، احترموا بوذا أشد الاحترام وعظموه تعظيماً كبيراً. فأخذ بوذا يهيئ كاشيابا الذي يعبد النار ليقبل تعاليمه بأن يبين له العلاقة بين النار المشتعلة ونار الشهوة وكيف أن لهيب الرغبات يملأ الإنسان حزناً وغماً وقلقاً واضطرابا وخوفاً مما يجعل الحياة قاسية مضنية وبعد ذلك استطاع أن يشرح له الحقائق الأربع والطريق المثمن الذي يقود إلى النرفانا. فآمن كاشيابا بتعاليم بوذا ولقد استطاع كاشيابا بنفوذه على أتباعه أن يحولهم جميعاً إلى البوذية، فألقوا في النهر المشاعل والأواني التي تستخدم في إشعال النار، فلما جرف التيار هذه الأواني بعيداً شاهدها أخان لكاشيابا وهما جادا ونادا ملقاة في عرض النهر، فظن الأخوان وأتباعهما أن حدثا خطيراً نزل بأخيهما، فقاما لتوهما إلى كاشيابا لاستطلاع الخبر. فإذا بهما يريانه

مرتدياً الملابس الصفراء هو واتباعهما. وبذلك آمن الزهاد الثلاثة وأتباعهم بتعاليم بوذا، وانصرفوا عن عبادة النار التي لا ترمز إلا إلى الشهوة الجامحة والأهواء المتقلبة الفتاكة. هكذا استطاع بوذا بمهاراته في الجدال والمناقشة وبقوة حجته أن يحول ثلاثة من مشاهير الزهادالي دينه الجديد فضلاً عن أكثر من ألف شخص من أتباعهم. ولقد كانت سياسة بوذا في نشر تعاليمه تسير على هذا المنوال على الدوام. وإذا كان يعتمد على الجدال الهادئ والمناقشة الرزينة التي لا تنتهي بالإقناع دون أن يفرض دينه بالقوة أو يعمد إلى سب الأديان الأخرى وتسفيه تعاليمها كي يكسب عضواً جديداً. كما كان بوذا يهتم بإقناع كبار الزهاد بصدق تعاليمه لم لهم من سلطان على عدد كبير من الأتباع. فمجرد أن يقتنع الزاهد الأكبر حتى يقبل جميع أتباعه على دينه.

وبعد أن أمضى بوذا ثلاثة أشهر في غابة أورفيلا توجه هو والزهاد الثلاثة وأتباعهم إلى مملكة ماجادها التي تقع في شرق وادي الجنجر، وتمتد حوالي مائة ميل جنوب ومائة ميل شرق نهر سوما الذي يخرج من نهر الجنجر ويتجه شمالاً بين جبال الهمالايا. ولقد قصد من زيارته مملكة ماجادها أن يفي بوعده ويزور الملك بمبسارا بعد أن وصل إلى طريق الخلاص. فلما اقترب من مدينة راجاجريها أقام في غابة استاف. وعندما سمع بمبسارا بقدوم بوذا عن بعد نزل من مركبته وسار إليه، ثم ركع تحت قدميه. بعد ذلك سأله عن صحته وأحواله ورحب به بوذا ودعاه للجلوس.

وما أن شاهد الأهالي الزهاد الثلاثة حتى اختلط عليهم الأمر، ولم يتعرفوا على بوذا، أما بمسارا فقد استغرب لوجود هؤلاء الزهاد مع بوذا، ثم أدرك أنهم أصبحوا من أتباع بوذا، فكبر قدرته على اقناع زهاد من مشاهير رجال الدين بدينه الجديد. ولقد استطاع بوذا أن يقرأ ما يدور بخلد بمبسارا، فسأل كاشيابا عما دفعه لترك عبادة النار، فأخبره بأن عبادة النار لا تنقذ أحداً من الآلام والأحزان، ولا تقطع صلة الإنسان بالحياة أو تحرره من دائرة الولادات، وأن النار رمز للشهوة التي تزودها الحواس بالوقود الذي يزيد من سعيرها. ولقد أثار حديث كاشيابا اهتمام بمبسارا، وشوقه لمعرفة المزيد من تعاليم بوذا فلما أخذ بوذا يوضح له هذه التعاليم أنصت إليه بشغف زائد فأخبره بوذا بأن تعاليمه تبدأ بهجرة الحياة ثم معرفة الحقائق الأربع واتباع هدى الطريق المثمن الذي يؤدي في النهاية إلى النرفانا التي ليس بعدها موت أو حياة؛ وليس فيها ألم أو لذة. وما أن انتهى بوذا من حديثه حتى آمن بمبسارا بتعاليم بوذا واعتنق عقيدته.

وفي اليوم التالي كان قد انتشر خبر اعتناق الزهاد الثلاثة وبمبسارا عقيدة بوذا، فتجمه الأهالي حول الكهف الذي يعيش فيه بوذا في غابة استاف ليروه، ويستمعوا إلى تعاليمه. ولقد آمن حشد كبير منهم بالعقيدة الجديدة وتعلموا ببوذا تعلقاً شديداً حتى إذا سار في طرقات المدينة التفوا حوله. وعندما كان يسير بوذا وقت الظهيرة نحو قصر بمبسارا لتناول وجبته اليومية كانت تحيط به جماهير الشعب. وعندما يصل إلى القصر يستقبله بمبسارا بكل ترحيب وتبجيل. ونظراً لأن غابة استاف كانت تبعد عن راجاجريها حوالي ستة أميال وكان قطع هذه المسافة سيراً على الأقدام

يتعب بوذا وأتباعه، شيد بمبسارا استراحة في غابة قريبة عرفت باسم غابة بمبسارا أو غابة فلوفانا. وهي تقع على أحد التلال التي في شمال رجاجريها ويجري في وسطها مجرى من الماء يتجه نحو الشمال. ولقد أهدى بمبسارا هذه الغابة بما فيه من استراحة لبوذا وجماعته، فقبلها بوذا شاكراً، وأقام فيها ما يقرب من شهرين، كان يخرج أتباعه في أثنائها إلى المدينة لاستجداء الطعام. وكان الأهالي يرحبون بهم، ويتسابقون على اعطائهم كثيراً من المأكولات. وكل ذلك ساعد على ذيوع صيت بوذا في كثير من البلاد المجاورة، إذ شاع بين سكانها وقبائلها بأن هناك زاهداً جديداً بلغ مرتبة الاستنارة قد ظهر في الكون. فأخذت تفد إليه الوفود لتتعرف على تعاليم بوذا، وما أن سمعتها حتى آمنت بها واعتنقتها.

ولما سمع أعظم زاهدين في ذلك الوقت بخبر ظهور بوذا المستنير توجه بوجاللانا وساريبوترا وأباعهما إلى غابة فلوفانا حيث يقيم بوذا واستطاع بوذا بما وهب من قدرة على الجدال ومهارة في الإقناع أن يحولهما هما وأتباعهما إلى دينه. ولقد بلغ تعظيم بوذا لهذين الزاهدين الكبيرين حداً كبيراً إذ جعل لها مكانة ممتازة بين أفراد الجماعة. ولقد أثار ذلك شعوراً بالحنق بين أفراد الجماعة مما دعا بوذا لأنهم يهتم بوضع النظم التي تحدد علاقة أعضاء الجماعة ببعضهم بعضاً، وتعين الأحوال والظروف التي يمكن أن يصل فيها العضو إلى مركز رفيع بين أعضائها. وبذلك وضع بوذا البند الأول لقانون الجماعة. وكان من بين التشاريع الأولى التي حث بوذا على اتباعها هو عقد اجتماعات دورية يلقي فيها دروساً في البوذية. إذ اعتاد زهاد رجاجريها ونساكها في ذلك الوقت أن يعقدوا اجتماعات دورية في

أول الشهر القمري وفي منتصفه يحضرها الأهالي. ويستمعوا إلى تعاليمهم، فطلب بمبسارا من بوذا أن يعقد مثل هذه الاجتماعات حتى تتضح التعاليم البوذية في أذهان الأهالي. فأخذ بوذا يعقد هذه الاجتماعات ويلقى فيها دروساً في المبادئ البوذية، ثم وضع تشريعاً ينظم عقد مثل هذه الاجتماعات بعد أن صار عقدها تقليداً بوذياً.

بالرغم من جهود بوذا في توضيح تعاليمه للأهالي، فإن حماستهم للبوذية أخذت تفتر، واقبالهم عليها أخذ يقل، كما تعرض أتباعه لاضطهاد الأهالي. فعندما كانوا يخرجون يومياً لاستجداء الطعام كان الأهالي يستقبلونهم بالسخرية والسب. لأن الدين الجديد يفرض على من يعتنقه أن يهجر الحياة الاجتماعية في جميع صورها، وأن يهجر أهله وأولاده، فسلب البيوت ممن يعولها من الرجال مما يؤدي إلى خراب البلد. فأخذ اتباع بوذا يشكون إليه سوء معاملة الأهالي لهم، وكيف أنهم يتهمون بوذا بأنه يعمل على تحطيم أسس الحياة العائلية مما يهدد البلد بالدمار والخراب. إلا أن بوذا أجاب بأن ما يسميه الأهالي بالخراب هو السعادة الحقة وأنه ر يسعى إلا لطلب الحق، وسير في نفس الطريق الذي سار فيه كل المستنيرين الذين سبقوه. وأنه لا يجبر أحد للانضمام إلى جماعته، وأنه لا يستخدم من الأسلحة إلا الجدل والإقناع. وهؤلاء الذين كسبهم إلى جماعته كسبهم بالصدق والحق الذي أعلنه لصالح الجميع.

ومن حسن حظ بوذا أنه بينما كان يجد في وضع أسس نظم جماعته، ويجتهد في توطيد أساليب مزاولة عقيدته، ويهتم بالرد على انتقادات

الشعب لتعاليمه لم تكن الديانة الهندوكية قد تبلورت تعاليمها واستقرت في النفوس. ولم يكن لها كهانة منظمة يمكن أن تقف في وجه تعاليم بوذا، وتناقشها مناقشة عنيدة وتحاربها محاربة جدية تزيد من عذاء الشعب لها. ولذلك لا نعجب إذا لم تؤثر انتقادات الشعب للبوذية في انتشار دعوة بوذا، خصوصاً بعد أن احتضنتها الأسرة المالكة، وآمن بها الأمراء، وأخذ يحميها الحاكم ويحث على ذيوعها في أرجاء بلاده.

وفي تلك المدة علم سودهودانا والد جوتاما بأن ابنه أصبح بوذا المستنير الذي يرشد الناس إلى طريق الخلاص، وأنه بلغ مناه. فتاق سودهودانا لرؤية ابنه فأرسل له رسولاً من رجال حاشيته يصحبه عدد كبير من الأهالي لكي يقنعوه بالعودة إلى كابيلافستي. إلا أن بوذا تمكن من أن يقنعهم جميعا باعتناق البوذية، ولم يرجع أحد منهم لسودهودانا الذي اضطر أن يختار شخصاً شديد الولاء له فأرسل كالودايين رفيق بوذا في صباه. وقبل أن يرحل أخبره سودهودتنا أنه لا يهمه إذا ما اعتنق البوذية أو لم يرض عنها إنما يهمه أن يعود إليه ويخبره بأحوال بوذا فوعده كالودايين بأنه سيعود وسيطلب من بوذا أن يزور أهله. ولما وصل كالودايين إلى بوذا استطاع بوذا أن يدخله في عقيدته إلا أن كالودايين استطاع أن يقنع بوذا بزيارة أبيه وبر بوعده وعاد إلى سودهودانا وبلغه نبأ زيارة ابنه لكابيلافستي.

وكان بوذا يود أ يرحل في الحال لأنه كان يرى أنه يجب أن ينتقل من بلدة إلى بلدة ينشر دعوته طوال السنة وفي جميع الفصول سواء في فصل الشتاء أو في فصل الصيف أو في فصل الأمطار إلا أن اتباعه أخبروه بأن

جميع المعلمين السابقين لم يرتحلوا في فصل المطر إذ أن مطر الهند غزير شديد يصعب فيه التنقل ويعوق السير. فسار بوذا على منوال الزهاد المعلمين القدامى وأمتنع عن السفر في فصل المطر، وظل في غابة فلوفانا إلى أن انتهى فصل المطر ثم خرج من مدينة راجاجريها. ومعه عشرات الألوف من المريدين وتوجهوا إلى كابيلافستي التي تبعد عن راجاجريها بحوالي ستين فرسخاً، وكانوا يمشون فرسخاً كل يوم، فوصلوا إلى كابيلافستي بعد شهرين سيرا على الأقدام، ولما علم الأهالي بقدوم بوذا أعدوا له غابة نيجرودها القريبة من كابيلافستي ليقيم بوذا وجماعته في استراحتها. ولما قرب بوذا من المدينة خرج الأهالي جميعاً من أطفال ونساء ورجال لاستقباله والترحيب بقدومه. ولما نزل بوذا وجماعته في استراحة غابة نيجرودها التي أعدها الأهالي لهم ذهب إليه أبوه وأعمامه وأخواله وجميع أقاربه للترحيب به لزيارته لبلدتهم، وللتمتع برؤيته بعد طول غياب. ولقد كان سودهودانا سعيداً كل السعادة برؤية بوذا، حتى أنه في غمرة الفرح نسى أن يدعو ابنه وجماعته لتناول الطعام في قصره أثناء اقامتهم في ولايته، وعاد سودهودانا وأسرته إلى قصورهم دون أ، ينتبهوا إلى خطأهم.

وفي اليوم التالي خرج بوذا مع بعض مريديه من غابة نيجرودها وقصدوا إلى مدينة كابيلافستي لاستجداء الطعام من الأهالي كعادته فأخذوا ينتقلون من باب إلى باب يطلبون ما تجود به الأهالي من طعام. وسرعان ما انتشر الخبر في المدينة، وسمع سودهودانا بأن ابنه يسير في الطرقات يشحذ طعامه، ففزع من هذا الخبر، وأسرع في الذهاب إلى بوذا في غابة نيرجرودها وأخبره عن تألمه وحزنه لأنه يشحذ طعامه بينما هو ابن

ملك، وأنه باستجدائه يجلب له الخزي والعار، وماكان عليه أن يشحذ فإن أباه في استطاعته أن يضيف جميع أفراد جماعته. فرد عليه بوذا بأن استجداء الصدقات من تقاليد جماعته، ويشرفهم أن يشحذوا طعامهم، وأنه ليس من نسل الملوك وإنما هو من نسل المستنيرين وهم جميعاً يشحذون طعامهم.

فتدارك سودهودانا ما وقع فيه من سهو، ودعا بوذا لزيارته في القصر وتزويد جماعته بما يلزمهم من مأكولات. ولما وصل بوذا إلى قصر أبيه أحسن أهله استقباله، ورحبوا به ترحيباً عظيماً، إلا أنه لاحظ تغيب زوجته يزودهارا، إذ لم يشاهدها بين المستقبلين، فظن أنها تريد أن يذهب هو إليها ليشعرها بأنها ما زالت عزيزة عليه فضلاً عن أنها لا تستطيع أن تقوم بواجب الترحيب به على الوجه الأكمل إلا في حجرتها الخاصة. ولم يتردد بوذا في الذهاب إليها، واصطحب معه ناسكين من مريديه، وحذرهما من ألا يمنعاها من احتضانه إذا ما حاولت ذلك بالرغم من أن القانون البوذي يحرم أنه يلمس البوذي امرأة أو تلمسه امرأة. ولكن لما شاهدت يزودهارا زوجها مرتدياً ملابس النساك الصفراء وبرأس محلوقة– وبالرغم من أنها كانت تعلم أنه سيكون على هذه الحالة– لم تستطع أن تسيطر على مشاعرها، وسقطت على الأرض، وأمسكت قدميه ثم انفجرت في البكاء. ثم تذكرت الهوة الشاسعة التي بينها وبينه فوقفت بعيدة عنه. ولما شاهد سودهودانا هذا المنظر المؤثر أخبر بوذا بأن زوجته ظلت وفية له مخلصة لحبه، ورفضت أن تعيش حياتها المترفة، ولم تقبل إلا حياة الزهاد، فكانت تكتفي بتناول وجبة واحدة في اليوم كالبوذيين، ولم تنم إلا على حصير على

الأرض، ورفضت أن تعود إلى أهلها عندما طلبوا منها ذلك بعد أ، هجرها زوجها. فأخبرها بوذا بأنها تعيش فعلاً حياة طاهرة عفيفة. ويرجع ذلك إلى أفعالها الفاضلة السابقة، فطلبت منه يزودهارا أن تنضم إلى جماعته وتصير ناسكة ولكن بوذا رفض لأنه لم يكن يرغب في أن تلتحق النساء بجماعته.

وكان اليوم الثالث يوم زفاف أخيه الأصغر ناندا إلى أجمل فتاة في المدينة، فذهب إليه بوذا وأهداه طاسة الشحاذة فلم يستطع أن يرودها واضطر أن يقبلها منه بالرغم من حبه الشدي لفتاته مع أن قبول الطاسة معناه أنه رضى أن يهجر الحياة، ويمتنع عن العلاقات الجنسية، فخزنت فتاته لأن فاندا هجرها في يوم زفافها. وبعد أسبوع ألبست يزودهارا ابنها راهولا من بوذا أحسن ثيابه، وأخبرته أن يذهب إلى أبيه، ويطلب إرثه الشرعي. فقال راهولا إنه لا يعرف أباً غير سودهودانا، وتساءل عما يكون أبوه الحقيق. فأخذته أمه إلى النافذة، وأشارت إلى بوذا قائلة: إن هذا الناسك هو أبوك، وعند ثروة عظيمة لم ترها منذ اليوم الذي هجرنا. لذلك يجب أن تذهب إليه، وتطلب حقك في هذه الثروة، وقل له إنك إبنه، وستصبح زعيم قبيلة ساكيا، وفي حاجة إلى نصيبك في الثروة التي يملكها، فذهب راهولا إلى بوذا، وقال له دون خوف أو تردد، وإنما بشوق زائد، أبي كم أنا سعيد أن أكون بجوارك وأريد نصيبي في ثروتك، فلم يرد عليه بوذا وكان قد انتهى من وجبته اليومية فقام ليذهب إلى غابة نيجرودها، فسار راهولا خلقه، وبينما هو في الطريق أخذ يفكر في أمر الثروة التي يطلبها منه ابنه راهولا، بينما هو لا يملك إلا دينه الجديد، فعزم أن يعلمه هذا الدين ولعل والدته كانت تهدف إلى ذلك. فطلب بوذا من ساريبوترا أن يلحق

ابنه راهولا بالجماعة. ولما سمع سودهودانا بذلك حزن حزناً شديداً، لأن ابنهناندا الأخ غير الشقيق لبوذا قد أصبح مريداً له، وانضم لجماعته وبذلك فقد ابنيه، والآن يفقد حفيده هو الآخر ولا يجد من يرث عرشه من بعده. فذهب إلى بوذا، وطلب منه أن يسن قانوناً لجماعته بأن لا يقبل عضواً جديداً في المستقبل في جماعته من الشبان الصغار دون السادسة عشر إلا بعد موافقة والديه فرحب بوذا بهذا الطلب وجعله بندا في قانون جماعته.

بعد ذلك غادر بوذا كابيلافستي، وتوجه إلى راجاجريها، إلا أنه توقف وهو في الطريق عند بلدة آمنيوبيا التي تقع على ضفاف نهر آنوما، واستراح في غابة مانجو قريبة من ذلك المكان الذي سبق أن طلب فيه من تشانا السائق أ، يتركه يوم أن قرر هجرة قصر أبيه. وبينما هو في هذه الغابة زاره حشد كبير من أفراد قبيلة ساكيا وقبيلة زوجته كولى على رأسهم أناندا الذي أصبح صديق بوذا الحميم وديفاداتا الذي أراد أن ينافس بوذا في زعامة البوذيين ويوبالي الذي صار من أكبر قادة الجماعة، وزاره كذلك أنورودها الذي أصبح فيلسوف البوذية، ولقد دخل عدد كبير من قبيلتي ساكيا وكولى في جماعة بوذا.

ولما انتهت هذه الزيارات واصل بوذا السير نحو راجاجريها. وأقام في غابة استاف البعيدة عن راجاجريها، وأمضى فيها فصل المطر الذي يمتد من شهر يونية إلى شهر أكتوبر موجهاً عنايته إلى تثقيف أفراد جماعته. وحدث أن زار راجاجريها في هذه الفترة تاجر ثري ومحسن كبير يدعى اناتها

بتديكا، أتى من مملكة كوشالا لمباشرة أعماله التجارية. وسمع من صديق إضافة أن عناك بوذا جديداً ظهر في الوجود، فذهب لتوه حيث حيث يقيم بوذا، وطلب منه أن يطلعه على تعاليمه ويعرفه بدينه، فرحب به بوذا وأبدى اعجابه لحبه للإحسان على الفقراء واليتامى، ثم أخذ يعلمه أصول دينه الجديد. بعد أن آمن بهذا الدين أخذ يلح على بوذا لزيارة بلدته شرافاستي عاصمة مملكة كوشالا لينشر تعاليمه بين أهله، وأبدى استعداده لأن يشيد استراحة خاصة في شرافاستي على نفقته الخاصة ليقيم فيها بوذا وجماعته عند ذهابهم، فقبل بوذا دعوته.

وحينما عاد التاجر آناتها بنديكا إلى شرافاستي وقع اختياره على غابة تطل على نهر رايتي يملكها الأمير جيتا فعرض عليه شراءها فغالى الأمير في طلب الثمن ولكن لما عرف أن التاجر يريد أن يقيم فيها استراحة لبوذا لم يتعنت في تقديره الثمن. وبعد أن اشتراها شرع في اقامة بناء فخم مزخرف في وسطه حجرة كبيرة أعدت خصيصاً لبوذا وحولها حجرات منفصلة لإقامة المرشدين وحجرات أخرى عديدة للمريدين. وكان حول هذا البناء حديقة أشجارها ذات أزهار يانعة وثمار وفاكهة متنوعة وبها برك مائية تحوم حولها طيور مغردة. وبعد أن أتم التاجر بناء الاستراحة التي سماها استراحة غابة جيتا، أخذ يقيم استراحات عديدة على طول الطريق بين راجاجريها وشرفاشتي ليستريح فيها بوذا أثناء سيره نحو مملكة كوشالا، ثم طلب من بوذا الحضور ولما انتهى فصل الأمطار قام بوذا وجماعته وتوجهوا إلى شرفاشتي حيث استقبلهم الأهالي أحسن استقبال إذ هبت المدينة كلها للاحتفال بقدوم بوذا. واستقر بوذا وجماعته في غابة جيتا التي وهبها التاجر

له. ولقد أقام فيها بوذا طوال تسعة أشهر واتخذ منها مركزاً لتنقلاته في مملكة كوشالا. ولما قرب فصل المطر توجه إلى راجاجريها وأمضى فصل المطر الرابع بعد الاستنارة في غابة فلوفانا.

ولما انتهى فصل المطر عبر بوذا وجماعته نهر الجنجز ذهبوا إلى فيشالي عاصمة ليكشافيس التي تقع في شمال نهر الجنجز وفي مواجهة مملكة ماجادها. وأقام في استراحة بهو كوتاجرا التي كثيراً ما كان يأوي إليها الزهاد والنساك أثناء تنقلاتهم، وكان يدور في بهوها الكبير مناقشات بين رجال مختلف العقائد. وبينما هو يقيم في هذه الاستراحة سمع بوذا عن وقوع خلاف بين قبيلته ساكيا وقبيلة زوجته كولى حول مياه نهر روهيني الذي يفصل بين بلديهما، فذهب إلى أبيه ووفق بين القبيلتين، وأزال ما بينهما من شقاق ثم عاد إلى بهوكوتاجارا ليقضي فصل المطر الخامس. ولكن بلغه في هذا الفصل نبأ مرض والده، فذهب للمرة الثانية إلى كابيلافستي وحضر وفاة أبيه، وتقبل التعازي، واشترك في المراسيم الجنائزية ولما عزم على العودة طلبت منه نساء ساكيا أن يدخلن جماعته وكان من بين أولاد النساء باجاباتي زوجة أبيه، ويزودهارا زوجته إلا أنه لم يرد عليهم. وتوجه منفرداً إلى فيشالي. ومع ذلك سارت جميع النساء إلى بهو كوتاجارا بعد أن حلقن شعورهن وأرتدين الأردية الصفراء. فرآهن أناندا وهن في حالة يرثى لها من التعب إذ كانت أقدامهن منتفخة وأرجلهن متربة، فسأل أناندا باجاباتي عن سبب مجيئهن، فأخبرته بأن بوذا لا يسمح بدخول النساء إلى جماعته، ولا يتيح للمرأة أن تهجر حياة البيوت إلى حياة النسك، بينما هن يرغبن في الانخراط في سلك جماعة بوذا فذهب أناندا إلى بوذا وأخبره برغبة باجاباتي

وبقية نساء ساكيا في دخول جماعته، فرفض بوذا ذلك في الحال. وعندئذ سأله أناندا إذا ما كانت المرأة تستطيع أن تصل إلى النرفانا كالرجل، وعندما رد بوذا بالإيجاب تساءل أناندا عن سبب منع باجاباتي من تحقيق النرفانا وهي أخت والدته التي ربته وتولت رعايته بعد أن ماتت أمه وهو ما زال في المهد ابن أسبوع، فرضي بوذا بقبول باجاباتي في جماعته، وبعدها سمح لجميع النساء بدخول جماعته إلا أنه اشترط في المرأة التي ترغب في أن تنضم إلى جماعة بوذا أن تسير حسب سلوك معين حدده بالشروط الثمانية الآتية:-

١- أن تحترم المرأة كل رجل في الجماعة حتى ولو كان أحدث منها التحاقاً بالجماعة.

٢- أن تبدأ الرجل بالتحية وتقف عند حضوره.

٣- لا تمضي فصل المطر في استراحة لا يوجد فيها رجال من أعضاء جماعة بوذا.

٤- أن تواظب على حضور مختلف الاجتماعات.

٥- أن تذكر في الاجتماع كل ما شاهدته، وتروي كل ما سمعته، وتستنفر عما تشك فيه.

٦- إذا ارتكبت إثماً أو مخالفة لنظم الجماعة يجب عليها أ، تنفذ عقوبات الجماعة.

٧- أن تقر في اجتماع الاعتراف بكل ما أتته من آثام ومخالفات.

٨- أن تقوم العلاقات بين الرجل والمرأة في الجماعة على أساس من المودة والوداعة، ولا تحاول امرأة أن تشهر بسمعة رجل أو تنسب إليه كذباً أو إثماً لم يقترفه أي لا تسئ لأحد من قريب أو بعيد سواء بالفعل أو القول.

بعد أن انتهى فصل المطر توجه بوذا إلى تل مانكولا الذي يوجد بالقرب من مدينة كوشامبي عاصمة مملكة فامشي وهي تقع بقرب مدينة الله آباد شمال نهر جوما رافد الجنجز. وأمضى في كهوف تل مانكولا فصل المطر السادس، ثم سار نحو راجاجريها وسمح لزوجة الملك بمبسارا بدخول جماعته لأنها سبق أن طلبت منه أن تلتحق بجماعته إلا أنه رفض هذا الطلب.

وحدث في هذا العام أن ربط أحد تجار راجاجريها الأثرياء طاسة ثمينة فوق عود من الغاب الهندي أمام جمع من النساك وأغراهم بنزع هذه الطاسة الثمينة بالقوة الخارقة. ومن يستطيع أن ينزعها يحق له أن يمتلكها. فاستطاع أحد مريدي بوذا نزع هذه الطاسة بالقوى الخارقة، وأخذ الطاسة. ولما سمع بوذا بهذه القصة عقد اجتماعاً عاجلاً حرم فيه ممارسة الخوارق، واعتبر كل من يأتيها آثم، ولكن الملك بمبسارا أخبره بأن هذا التحريم قد يفسر معارضوه بأنه عجز عن إتيان مثل هذه الخوارق فسمح بوذا لمريديه بممارستها.

وأمضى بوذا فصل المطر السابع في اقليم تافاتيمشا، ثم سار إلى شرافستي ويحكى أنه بينما كان سائراً طار في السماء. وذهب إلى أمه ولقنها تعاليم الاستنارة، ونزل من السماء عند بلدة شانكيسا، وسار نحو ثلاثين فرسخاً حتى وصل إلى شرافستي. وبينما كان في استراحة جيتا رمته امرأة عابثة تدعى شنشا بأنه هتك عرضها واعتدى عن شرفها وأزال بكارتها. إلا أنه استطاع أن يكذب ادعاءها ويبين للجميع أن أعداءه حرضوها على أن تلقي عليه التهمة لتحط من سمعته وتنزل من مكانته بين الناس. ثم توجه إلى بلدة بهاجا القريبة من كابيلافستي، وتحف بها تلال شومشومارا التي أمضى في كهوفها فصل المطر الثامن. ويعد ذلك ذهب إلى كوشامبي واستقر في غابة جهوشيتا حتى أمضى فصل المطر التاسع.

ولقد حدث أثناء إقامته في هذه الغابة أول نزاع وقع بين بوذا وأعضاء جماعته، إذا رأى بوذا في بعض أفعال العضو ماجاندبيا ما يخالف ما تواضعت عليه الجماعة، ولكنه رفض أن يقر بغلطة أو يعترف بأن ما أتاه يعتبر اثماً فانقسمت الجماعة إلى حزبين: حزب يرى أن بوذا على حق وحزب لم ير في سلوك ماجانديبا ما يستوجب معاقبته بالمجاهدات التعذيبية، مما أدى إلى أن يدخل الجميع في مناقشات حادة تبودلت فيها الألفاظ الجارحة والعبارات العنيفة مما ساعد على اشتداد النزاع بين أعضاء الجماعة حتى توسعت هوة الخلاف بينهم فاضطر أناندا أن يطلب من جانديبا أن يبتعد حيناً من الوقت حتى تهدأ الحالة وتخف حدة الجدال وتستقر الأمور، كما نبه بوذا جميع أفراد جماعته إلى أن الخلافات مهما كانت لا يجب أن تفرق شملهم وتغرس البغضاء والكراية في صفوفهم، ويجب على الدرام وفي

جميع الأحوال أن تضمهم المحبة والود في وحدة لا انفصام لها. إلا أن محاولات أناندا ذهبت أدراج الرياح وفشلت جهوده في تهدئة عنف هذه المناقشات ولم يستمع الأعضاء لنصائح بوذا واستمروا في لغوهم. بذلك حصل أول تصدع يصيب الجماعة إذ ترك بوذا الأعضاء في نقاشهم ولافاتهم واعتزلهم جميعاً وعاش وحيداً في غابة باريلياكا في كوخ صغير بناه له المزارعون، وأمضى فيه فصل المطر العاشر. ولقد أحزن فراق بوذا جميع الأعضاء واعترف كل من انشق عنه بغلطه، وتوجهوا جميعاً إليه تائبين نادمين مقرين بأن ما أتاه ماجانديبا مخالف حقاً لنظم بوذا. ولقد رحب بوذا بقدومهم وغفر لهم خطأهم، إلا أنه وجه إليهم كلمات موجعة بين فيها أن الخلافات مهما عظمت لا يجب أن تخرج أحداً منهم عن الهدوء والسكينة والرزانة، ويجب أن يشوب الجدال والصداقة والمحبة والحكمة حتى يمكن أن يعيش أفراد الجماعة في انسجام دائم وتعاون مستمر.

بعد ذلك اتجه بوذا مع هؤلاء الأعضاء إلى شرافستي ومنها إلى ولاية ماجادهار أمضى فصل المطر الحادي عشر في إحدى قراها وهي قرية نالا البرهمية. فرآه أحد الأثرياء البراهمة يوم عيد الحصاد فرحب به اتباع هذا البرهمي وأعطوا بوذا صدقات من الطعام. فغضب البرهمي من اتباعه وأخبرهم بأن الذي يزرع هو الذي يأكل فقط، أما الذي لا يزرع فلا يجب أن يأكل، وأن بوذا لا يستحق ما يعطى له من طعام لأنه لا يزرع. فرد عليه بوذا بأنه يرعرع كذلك. فتساءل البرهمي عن كيفية الزراعة بلا محراث أو بذور فأخبره بوذا بأن الإيمان هو البذرة التي يغرسها في القلوب. وأن السلوك السوي هو المطر التي ينميه، وأن الحكمة والتواضع هما أجزاء

المحراث، وأن العقل هو العنان وأن المجاهدة هي الثور، وأن الحرث هو الجهد الذي يزيل طفيليات الضلال، وأن الحصاد هو النرفانا. وبعد أن كان البرهمي يحتقر بوذا فعندما سمع حديثه عظم قدره في نظره وآمن بصدق تعاليمه واعتنق مذهبه.

وبعد أن انتهى فصل المطر سار إلى مملكة كوشالا حيث مدينة شاتيابيا ومنها اتجه إلى مدينة فرانجا التي تقع بين نهر الجنجر ورافده جوما، وأمضى فيها فصل المطر الثاني عشر.

وقام بعد ذلك بأطول رحلة من رحلاته العديدة، إذا ذهب إلى بلدة مانتالا جنوب الجنجر، ثم عاد إلى بنارس، وانتقل إلى فيشالي ومنها إلى شرافستي وظل يدعو أثناء تنقلاته كعادته إلى تعاليمه، ويحث أهل كل بلد يحل فيها على الانضمام إلى جماعة، ويناقش الزهاد ويجادل البراهمة في أصول مذهبه ونظم جماعته. كما حرص في هذه الرحلة أن يلقن ابنه راهولا الذي بلغ سن الثمانية عشر كيف يتخلص من روابط الحياة وقيودها، ويعده لحياة التأمل الخالص المتحرر من الشهوة والرغبة ليمهد له طريق النرفانا.

وأمضى فصل المطر الثالث عشر في تل كاليبا وهو قسم من جبال هملايا التي تقع شمال نهر الجنجز، ثم سار نحو شرافستي، ومكث في استراحة جيتا أثناء موسم المطر الرابع عشر. ويحكى أنه استطاع أثناء اقامته في آلافي أن يستأنس شخصاً وحش الطباع غريب الأطوار يدعى

آلافاكي يميل للفتك بالأطفال وحدث أن تصدى هذا الإنسان الغريب لبوذا، وقطع عليه الطريق يريد أن يفتك به، إلا أن بوذا تمكن من أن يهذب خشونة طبعه الوحشي ويحوله إلى انسان هادئ، ثم أخذ يعلمه مبادئ الاستنارة حتى آمن من الفتك بالأطفال.

وأقام بوذا وجماعته في راجاجريها أثناء موسم المطر السابع عشر. ولما اعتدل الطقس وخف المطر عاد إلى آلافي ماراً بمدينة شرافستي. وكان يلقي في الأماكن التي يمر بها دروساً في الاستنارة إلا أنه رفض أن يعلم رجلاً جائعاً في آلافي قبل أن يأكل.

ولما جاء فصل المطر الثامن عشر ذهب بوذا إلى تل كاليبا القريب من شرافستي وأقام في كهوفه إلى أن توقف المطر، ثم عاد إلى راجارجريها.

وبعد أن أمضى موسم المطر التاسع عشر في استراحة فلوفانا أخذ يتجول خلال مملكة ماجادها ناشراً تعاليمه في القرى. وفي احدى تنقلاته شاهد غزالاً وقع في الشراك فأطلق سراحه، وجلس تحت شجرة قريبة من الشراك. فلما عاد الصياد ولم يجد صيده غضب غضباً شديداً، وكاد أن يفتك ببوذا إلا أن بوذا بوداعته استطاع أن يزيل منه الغضب ويعده لتلقي تعاليمه. فما أن سمع مبادئ الاستنارة حتى تقبلها مؤمناً بها، وحيث أفراد عائلته على الإيمان بتعاليم بوذا.

ولما قرب موسم المطر العشرون توجه إلى شرافستي حتى أمضى فيها هذا الفصل، واتخذ من أنا ندا مريده الخاص ورفيقه الدائم بعد أن لاحظ من مريده السابق إهمالاً في خدمته.

وبعد ذلك قام بآخر رحلة له إذ توجه إلى غابة قريبة من تل كاليبا لما سمع بأن هناك مجرماً يدعى آنجوليمالا يأوي في هذه الغابة، ويسطو على أهالي مملكة كوشالا، ويسفك دماءهم ويسلب ممتلكاتهم ويسرق أموالهم وبلغ جرمه حداً كبيراً إلى درجة أنه كان يرتدي قلادة مكونة من أصابع قتلاه. ولقد نشر هذا المجرم الرعب في كل مكان، وتمنى ياشنادي حاكم كوشالا أن يقبض على هذا المجرم حتى يتخلص من أشراره ويوقف جرائمه عند حد، فأمر رجال الشرطة بالبحث عنه والقبض عليه. ولكن بوذا ذهب بمفرده إلى حيث يقيم هذا المجرم بالرغم من تحذير الأهالي له من الخطر الذي يتعرض إليه فلما رأى المجرم بوذا قادماً نحوه ظن أنه قادم للقبض عليه، فأمسك سيفه ودرعه وأعد قوسه وسهمه، وتسرب من خلف بوذا راغباً في قتله. إلا أن آنجوليمالا لم يستطع أن يقترب من بوذا بالرغم من أنه سريع الخطى بينما كان يسير بوذا سيراً وئيداً فأحس المجرم بأن هناك قوى تمنعه من الاقتراب من بوذا، وتحول قتله فخشى بوذا وهابه وكف عن محاولة الفتك به. بل إن بوذا استطاع أن يحول هذا المجرم الكاسر إلى انسان وديع، وأخذ يلقنه تعاليمه فما أن استطاع إلى هذه التعاليم حتى آمن بها وسار وديعاً مع بوذا إلى شرافستي، وأقام مع الجماعة في استراحة جيتا.

وحينما ذهب الحاكم ياشنادي ليرحب ببوذا، أخبره عن المجرم آنجوليمالا وما يرتكبه من جرائم، وكيف أنه يخرب المدن والقرى ويسلب أهلها ويذبحهم ولا يعرف كيف يقبض عليه ويعاقبه، فسأله بوذا إذا ما رأى آنجوليمالا محلوق الرأس واللحية، يرتدي الثوب الأصفر، وترك الحياة الدنيا، وفضل حياة العزلة، وكف عن القتل والنهب، ولا يتناول إلا وجبة واحدة في اليوم ويسلك حياة فاضلة فهل يفكر في القبض عليه ومعاقبته، فأجاب ياشنادى بأنه لا شك سوف يجله ويحترمه بل ويقدم له الأثواب، ويهبه الطعام والسكن والدواء، ويحميه من كل من يعتدي عليه. ولكنه عندما شاهد آنجوليمالا بين النساك انزعج في أول الأمر، ولكن لما تأكد من أنه أصبح عضواً في الجماعة ذهب عنه الخوف، واطمأن إلى أن بلاده قد نجحت من شره، وأوفى بوعده وعفى عنه ومنع جنده من البحث عنه والقبض عليه.

وهكذا ظل بوذا طوال العشرين سنة بعد الاستنارة متنقلاً من بلدة إلى أخرى ومتجولاً بين القرى، ولم يستقر في مكان، يقضي فصل المطر في استراحة في غابة أو في مغارات التلال وكهوف الجبال، ويسافر سيراً على الأقدام حوالي تسعة أشهر سنوياً يمر بالقرى والمدن معلناً تعاليمه وداعياً الأهالي للانضمام إلى جماعته التي أخذت في النمو والازدياد بفضل جهاد الدائب. ولقد صادفه كثير من المشاكل داخل الجماعة استطاع بحبه للسلام أن يتغلب عليها. وتمكن أن يدخل في جماعته لا الأمراء والأثرياء فقط بل أدخل كذلك المجرمين والآثمين بعد التوبة.

ولا شك في أن بوذا بعد هذا الجهاد الطويل يحق له أن يستريح من مشاق السفر ومتاعب التنقل خصوصاً بعد أن كبر سنه وضعف جسمه، لذلك لم يستطع بعد الرحلة العشرين أن يستمر في ترحاله، واضطر إلى أن يستقر في استراحة جيتا؛ وأصبح يقيم فيها بصفة دائمة. وبالرغم من أنه اتخذ من مدينة شرافستي مركزاً له ولكنه مع ذلك قام بما يقرب من أربع وعشرين رحلة أخرى إلا أنه لا يكاد يبعد عن شرافستي حتى يعود إليها بعد فترة قصيرة.

ولقد كانت هناك سيدة ثرية محسنة كريمة تدعى فيشاكها من بلدة بهاديبا تعودت أن تهب النساك ما يحتاجون إليه من مأكل وملبس وأغطية. وحدث أن رأت بعض المريديات من جماعة بوذا يسبحن عاريات في النهر فزارت بوذا في استراحة جيتا لتناقشه في أمرهن. وكانت تتزين بأثمن الجواهر إلا أنها خلعت هذه الجواهر قبل أن تدخل الاستراحة ولفتها في قطعة قماش وأعطتها لجاريتها، ثم توجهت إلى حيث يوجد بوذا. بعد أن حيته ورحب بها دخلا في نقاش حول بعض نظم الجماعة وطلبت منه أن يقبل منها ما يأتي:

١ – أن تقدم للأعضاء أردية في فصل المطر لأنها سمعت أنهم لا يملكون إلا رداء واحداً فإذا ابتل يخلعونه حتى يجف ويظلون يرتجفون من البرد إلى أن يلبسون بعد أن يجف.

٢- أن تقدم الطعام لأعضاء الجماعة دون حاجة إلى التجول في الطرقات لاستجداء الطعام خصوصاً في فصل المطر.

٣- أن يمنع بوذا الأعضاء من الجلوس في الطرقات شبه عراة يستجدون المارة.

٤- أن يعالج المرضى من الأعضاء، وينصحهم بقبول استخدام الدواء الذي يشير به الطبيب.

٥- أن يمنع استحمام الأعضاء عراة في الأنهار وخصوصاً السيدات.

وبعد أن انتهى حديثها مع بوذا استأذنت وخرجت هي وجاريتها.

ولكن قبل أن تذهب بعيداً تذكرت الجارية أنها نسيت الجواهر في الاستراحة. وكان أحد الأعضاء قد عثر عليها وطلب منه بوذا أن يحتفظ بها لحين عودة صاحبتها، ولما عادت الجارية أعطاها الجواهر. إلا أن فيشاكها قد عزمت أن تهبها لجماعة بوذا ولا تتزين بها بعد الآن. فأرسلت في طلب صانع الجواهر ليحدد ثمنها، ثم باعتها، ووهبت ثمنها لبوذا وخيرته بين المال أو بناء استراحة في الجهة الشرقية من مدينة شرافستي ففضل بوذا الاستراحة. ولما تم بناء هذه الاستراحة احتفلت فيشاركها بافتتاحها لمدة أربعة أشهر كانت تقدم فيها الطعام لجماعة بوذا وسمتها استراحة بوب آراما، واتخذ بوذا منها مركزاً ثانياً في مدينة شرافستي فأحياناً كان يستقر في استراحة جيتا وأحياناً في استراحة بوب آراما.

ولم تكن فيشاكهاهي السيدة الوحيدة التي أقامت استراحة لجماعة بوذا. فلقد كانت هناك أيضاً سيدة أخرى تدعى آمبابالي من مدينة فيشالي قد أشادت له استراحة ولقد كانت هذه السيدة على قسط وافر من الجمال وغانية من الغواني التي تجيد الرقص والغناء ولا ترفض ما يطلبه منها العشاق واستطاع بوذا أن يغير مجرى حياتها ويجعلها تترك حياة الفجر والمجون وتؤمن بتعاليمه، فأنفقت كثيراً من أموالها في بناء استراحة في غابة آمبابالي خلاف ما كانت تغدق به على الجماعة من الهبات من ملبس ومأكل وأدوية.

وقد يبدو أن بوذا كان موفقاً كل التوفيق في نشر دعوته، يكسب كل يوم أعضاء جدد، لم تصادفه عراقيل تعوق التفاف هؤلاء الأعضاء حوله في وحدة متناسقة متماسكة متحابة متعاونة. إلا أن ديفاداتا ابن عم بوذا هو الذي أصاب الجماعة بالتصدع، وأثار بين أعضائها حركة عصيان ضد بوذا أحدثت انشقاقاً كاد يقضي على الجماعة.

في إحدى تنقلات بوذا أخذ أهالي كوشامبي على ديفاداتا بعض الهنات لم كان يصدر عنه من مخالفات لنظم بوذا، وشاع أن ديفاداتا يخالف نظم الجماعة، فلما بلغ أمر هذه المخالفات سمع بوذا أسرع ديفاداتا وسبق بوذا إلى راجاجريها. وكان لديفاداتا مقدرة عظيمة على اتيان الخوارق، وكان طموحاً يأمل في أن يتولى رئاسة الجماعة بعد بوذا: ولكن بوذا طالت حياته، وهو لا يطيق صبراً إلى أن يموت بوذا، وينشد أن يكون مستنير الجماعة في أسرع وقت وبأي ثمن. فتوجه إلى الأمير الشاب الطموح آجاتا

شاتو ابن الملك بمبسارا العجوز حاكم ماجادها، واستطاع أن يكسب ثقته بما أظهره له من مهارة فائقة في اتيان الخوارق. ولما أحس ديفاداتا بأن آجاتا شاتو يطمئن إليه ولا يرتاب في نواياه أخذ يثير طموح الأمير الشاب ويحثه على التخلص من أبيه الكهل ليتولى الحكم، وأبدى استعداده على أن يساعده في هذه المهمة على شرط أن يساعده في التخلص من بوذا ليصبح مستنير الجماعة.

وأعد آجاتا شاتو خنجراً، وتسلل إلى جناح أبيه الخاص ليذبحه، إلا أن وزير أبيه الخاص رآه فأمسكه، وسأله عن قصده، فأخبره بأنه يريد أن يذبح أباه حتى تتاح له فرصة تولى الحكم وأن أباه أصبح شيخاً كبيراً ضعيفاً لا يصلح للحكم وأن الذي أغراه على ذلك هو الزاهد ديفاداتا. بعد ذلك اجتمع الوزراء لبحث هذه المشكلة الخطيرة، فرأى بعضهم قتل آجاتا شاتو وديفاداتا وجميع أعضاء جماعة بوذا، ورأى البعض الآخر قتل آجاتا شاتو وديفاداتا فقط لأن أعضاء جماعة بوذا لا ذنب لهم ولم يأتوا جرماً يستحقون عليه القتل، ورأى غيرهم من الوزراء أنه يجب عرض الأمر على بمبسارا قبل أن يتخذ أي قرار بصدد هذه الجريمة. فلما عرضت هذه الآراء على بمبسارا عزل الوزراء الذين رأوا قتل آجاتا شاتو وديفاداتا وأعضاء جماعة بوذا؛ وعين الوزراء الذين اقترحوا قتل آجاتا شاتو وديفاداتا فقط في مناصب أقل من مناصب الوزارة، بينما رضي عن الوزراء الذين عارضوا قتل أي فرد قبل عرض الأمر عليه. وبعد ذلك طلب أن يحضر ابنه، وسأله عن سبب إقدامه على قتله، فرد عليه بأنه يريد أن يتولى الحكم فولاه

بمبسارا الحكم. وإن لم يصبح ملك البلاد إلا أن جميع السلطات الفعلية كانت في يده.

وعندئذ قوي نفوذ ديفاداتا الذي احتضنه آجاتا شاتو، وأعد له استراحة خاصة، ويهبه كل يوم كميات كبيرة من الطعام. ولما سمع بوذا من مريديه بأمر هذه الهبات أخبرهم بأنه لا يجب أن يحسدوا ديفاداتا على ما يعطى من طعام، وإنما يجب أن يشفقوا عليه لأن كثرة الطعام تفسد حياة الناسك إذ تعرقل الطهارة، وتعوق صفاء الذهن وتحول دون اكتساب الصفات العقلية التي تعد الناسك للاستنارة. ولما ذهب بوذا إلى راجا جريها استقر في استراحة فلوفانا، فتوجه إليه ديفاداتا وطلب منه أن يتناول عن رئاسة الجماعة لأنه أصبح شيخاً ضعيفاً أنهكه السفر، ولا يقوى على تولي مهام الجماعة. إلا أن بوذا رفض رفضاً باتاً أن يتنازل عن رئاسة الجماعة لديفاداتا أو لمن هو أعلى منه قدراً مثل الناسك مونجالانا والناسك ساريبوتا، فضلاً عن أن الإنسان لا يمكن أن يصبح مستنيراً بالقوة والالزام، ولا يطلب من أحد أن يجعله مستنيراً، وإنما سبيل الاستنارة هو جهاد الشخص في طريق النرفانا وأن الذي يجعله مستنيراً هو عمله من أجل الاستنارة. فغضب ديفاداتا غضباً شديداً؛ وترك بوذا ساخطاً حزيناً مصمماً على أن يثير الفتن فيربوع الجماعة حتى تتفكك أواصرها فيستطيع أن يكون جماعة أخرى يكون هو رئيسها ومستنيرها.

فعمد ديفاداتا إلى أن يثير بعض الأعضاء المتمسكين بحرفية التعاليم الأولى ضد بوذا صاحب هذه التعاليم، واستطاع أن يقنعهم بأنه وصل إلى

الاستنارة في حين أن بوذا حاد عن طريق الاستنارة ولا يسير حسب القانون الذي سنه الجماعة، فلا يجب أن يطيعه أحد، بينما يحق لديفاداتا أن يكون رئيس الجماعة، ويضع لها النظم واللوائح، وأن كل ما يصدر عنه فهو صحيح يجب أن يطاع لأنه مستمد من استنارته. واستطاع ديفاداتا بهذه الطريقة أن يغري عدداً كبيراً من الأعضاء، التفوا حوله وكون بهم جماعة وضع نفسه على رأسها.

وبينما كان بوذا مجتمعاً بالأعضاء في أحد الاجتماعات الدورية توجه ديفاراتا على رأس جماعته إلى هذا الاجتماع وأعلن فيه أن سلوك بوذا يتعارض مع تعاليمه، وأنه خرج على النظم التي وضعها، وانحرف في خمس نقاط رئيسية عن السبل التي تواضعت عليها الجماعة وتنحصر هذه المخالفات الخمس فيما يأتي:

١– طالب بوذا الأعضاء باعتزال الحياة البيتية والاجتماعية، وحرم عليهم السكنى بالقرب من المدن والقرى، ولكنه يقيم هو وجماعته في استراحات قريبة من المدن والقرى.

٢– حدد إقامة الأعضاء في المغارات والكهوف ولكنه يسكن في استراحات فاخرة ومباني جميلة.

٣– فرض على كل عضو أن يشحذ طعامه إلا أنه يلبي الدعوات إلى الولائم.

٤- حرم أكل اللحوم والأسماك ومع ذلك يأكلها في الولائم.

٥- قرر أن تكون ملابس الأعضاء من الخرق البالية التي يعثر عليها في المزابل ويترك الأعضاء يرتدون ملابس جديدة يأخذونها كهدايا من الأثرياء والتجار.

ويبدو أن هذه الاعتراضات لم تتناول صلب عقيدة بوذا من قريب أو بعيد وإنما تنصب على نظم الجماعة وتقاليدها، وأن ديفاداتا قصد من وراء هذه الاعتراضات أن يشغل الجماعة بنقاش لا يجدي حول نظم الجماعة ويظهر أمامهم بمظهر المتمسك بأصول الاستنارة وأنه أحق من بوذا في رئاسة الجماعة، مع أن هذه الاعتراضات لا تشير إلى الوسائل الجوهرية التي توصل إلى الاستنارة أو تحقق النرفانا، ومع ذلك لم يترك بوذا اعتراضاً دون أن يرد عليه وقال:

١- للعضو مطلق التطرف في أن يقيم في مغارة في سفح جبل أو في استراحة أقامها أحد الأثرياء خصيصاً لأعضاء الجماعة بالقرب من المدن والقرى.

٢- ليس من الضروري ألا يأكل العضو إلا مما يستجديه وله أن يلبي الدعوات إلى الولائم إذ ليس عليه أن يرفض مثل هذه الدعوات.

٣- إنه يحرم فقط تناول لحم الحيوانات التي ذبحت خصيصاً للعضو وإنه يجب أن يمتنع عن تناول اللحم إذا ما شئت في أن هناك حيواناً ذبح خصيصاً له.

٤- والعضو حر في أن يرتدي ثوباً مصنوعاً من الخرق البالية إذا شاء، ولكنه لا يمنعه من ارتداء ثوب مصنوع من قماش جديد اهداه له أحد المحسنين بشرط أن يقطعه إلى قطع صغيرة ثم يخيط منها لباساً له.

إلا أن ديفاداتا لم يقتنع بهذه الإجابات وتمسك بأن بوذا يخالف نظم الجماعة وبذلك لا يحق له أن يتولى رئاستها، وطلب تحكيم أعضاء الجماعة على أقوال كل منهما وليفصلوا بينهما. فما أخذت الأصوات أيد ديفاداتا أكثر من خمسمائة عضواً، ولكن بوذا تمسك برأيه ولم يجد في سلوكه تعارضاً مع نظم الجماعة. فأنسحب ديفاداتا من الاجتماع وسار معه جميع الأعضاء الذين أيدوه. وخرج وراءهم ساريبوتا ومونجالانا متظاهرين بأنهما من المؤيدين لديفاداتا، ولقد ظن بقية الأعضاء أنها انشقا كذلك عن بوذا ولكنها في الحقيقة كان يهدفان إلى إرجاع جميع الأعضاء الخارجين إلى خطيرة بوذا. فلما رآهما ديفاداتا أحسن استقبالها لأنه ظن أنهما آمناً بما يقول. وما أن جاء الليل ونام ديفاداتا حتى استطاع مونجالانا وساريبوتا من إظهار ضلال ديفارداتا، واقناع جميع المنشقين بضرورة العودة إلى بوذا المستنير الحق، وما أن استيقظ ديفاداتا حتى وجد معظم مؤيديه قد عادوا إلى بوذا ولم يعترض بوذا على عودتهم ما داموا قد أدركوا خطأهم وتابوا. ولكن كل هذه الأحداث أثارت غضب اتباع بوذا على ديفارادتا بسبب

ما جلبه للجماعة من اضطراب وانشقاق، وأحسوا بأن ديفاداتا لا يصلح لأن يكون رئيس الجماعة لأنه يحاول أن يصل إلى هذه الرئاسة عن طريق إثارة الفتن والمنازعات بين أفراد الجماعة، وأنه لا يمكن أن يكون قد وصل إلى الاستنارة لأنه يسلك طرقاً تخالف سبل جميع المستنيرين، فقرروا فصله من الجماعة.

ولقد أثار هذا الفصل حقد ديفاداتا على بوذا، ولم يستسلم لهذه الهزيمة وقرر الانتقام. فتوجه إلى آجاتاشاتو ابن بمبسارا، وطلب منه أن يخلع بوذا من رئاسة الجماعة، أو يساعده على التخلص منه. فحرص بعض رجاله على قتل بوذا، إلا أن كل شخص يذهب لقتله لا يعود، إذ بمجرد أن يشاهد بوذا بهيأته الوقورة الوادعة الحلوة حتى يحجم عن قتله، ويطلب منه المغفرة والعفو وسرعان ما ينضم إلى الجماعة. ولما سمع أعضاء الجماعة بمحاولات ديفاداتا لقتل بوذا طلبوا منه ألا يسير منفرداً وأن يصحبوه في غدواته وروحاته لحراسته وحمياته من غدر ديفاداتا. ولكن بوذا رفض هذه الحراسة وأخبرهم بأن المستنير لا يحتاج لحراسة لأنه لا يأتي شراص، وأن ديفاداتا لا يمكن أن يصير مستنيراً لأن الاستنارة لا تتحقق بالشر والتحريض على القتل، إذ لا يتصور أحد أن الاعتداء والجريمة والعنف هي طرق الاستنارة، ولذلك لا يجب أن تخافوا على بوذا المستنير وإنما أشفقوا على ديفاداتا الشرير الذي يول له طموحه وحبه للشهرة أنه يستطيع أن يصبح مستنيراً بالعنف والقتل.

إن فشل ديفاداتا في قتل بوذا لم يثنه عن الاستمرار في التفكير في محاولات أخرى لقتله. فاستطاع أن يغري أحد الأهالي عنده فيل متوحش على أن يطلق سراح هذا الفيل في طريق بوذا حين قدومه إلى المدينة طلباً للطعام. فلما لمح بوذا عن بعد فك قيد الفيل المتوحش الثائر، وما أن شاهده أهل المدينة حتى ولوا هاربين فوعين صاعدين فوق أسطح البيوت، ومنهم من أخذ يصيح محذراً بوذا من خطر الفيل الهائج. فطلب منه المريدون الذين يصحبونه أن يبتعد عن هذا الطرق ويسلك طريقاً آخر فأخبرهم بأن من يطلب الحقيقة ووصل إلى الاستنارة لا يخاف العنف وأن الاعتداء لا يقضي عليه لأنه حقق النرفانا. وما أن اقترب الفيل تالاجيري مهم حتى ابتعد المريدون ما عدا أناندا وظل بوذا على ما هو عليه من هدوء ووداعة، وما أن رآه الفيل المندفع الرافع خرطومه ومهدداً به كل من يعترض طريقه حتى وقف وأنزل خرطومه، فربت بوذا عليه فهدأ واستكان ووقف ساكناً وديعاً، ثم عاد الفيل تالا جيري إلى حظيرته مستأنساً ولما عرف الأهالي أن المحرض على قتل بوذا هو ديفاداتا غضبوا منه لنزعته الشريرة الماكرة. وهكذا خسر ديفاداتا جميع الأعوان، وأصبح أعضاء الجماعة والأهالي يكرهونه لنواياه الآثمة.

إلا أن لهيب حقد ديفاداتا على بوذا ازداد اشتعالاً وصمم على قتله بنفسه. فبينما كان بوذا يهبط تل فلشر بيك القريب من راجاجريها ويقام على أحد سفوحه استراحة فلوفانا التي يقيم بها بوذا وجماعته، أسرع ديفاداتا إلى قمة هذا الجبل ودحرج صخرة كبيرة لكي تقع على بوذا وتصدمه صدمة قاتلة، إلا أن الصخرة في تدحرجها تفتت إلى قطع صغيرة

جرت على جانبي بوذا دون أن تؤذيه، ولم تصدمه إلا قطع صغيرة أرمت احدى قدميه.

ولقد أساءت محاولات ديفاداتا لقتل بوذا إلى سمعته، وأن فشله في قتل بوذا ونجاته في كل محاولة أفقد ديفاداتا كثيراً من الاحترام، خصوصاً وأنه قد اشتهر بقدرة عظيمة على اتيان الخوارق. ومع أن أتباعه أخذ يزيد عددهم مع الأيام إلا أنه يعمر طويلاً، وما أن مات ديفاداتا حتى زال تأثيره الشرير على آجاتاشاتو، واضطر تحت ضغط الأهالي إلى أن يكفر عن آثامه الماضية بأن يطلب المغفرة من بوذا. ولما عرف تعاليم بوذا آمن بها، وأخذ يرعى جماعته، ويكثر لها من الهبات والعطايا.

الفصل السادس

نظم جماعة بوذا

إن طبيعة دعوة بوذا التقشفية وحياة أتباعه غي جماعات تقيم في استراحات خارج المدن القريبة من القرى، حثت إلى وضع تنظيمات توضح شروط انضمام الأفراد إلى الجماعة، وإلى سن لوائح تحدد علاقات أعضاء الجماعة ببعضهم بعضاً وعلاقاتهم بسكان القرى المجاورة، وتعين نوع مسكنهم وملابسهم ومأكلهم، وترسم حياتهم اليومية، وتبين لهم السلوك الخير من السلوك الشرير، وتبيح لهم ما هو مناسب لعضو الجماعة وتحرم ما هو خارج عن أصول لوائح الجماعة، وتفرض عقوبات على كل مخالف لهذه اللوائح حتى يحافظ العضو دائماً على طهارته ولا يصرفه شيء عن غايته.

ولم يضع بوذا نظم الجماعة دفعة واحدة، بل معظم هذه اللوائح وضعت عند استفسار الأتباع عن تصرف من التصرفات يشكون في سلامته أو يعتبرونه خارجاً عن قانون بوذا. أي لم توضع هذه اللوائح بطريقة مجردة بعيدة عن حياة البوذيين، وإنما كل لائحة لها حادثة معينة حفزت إلى وضعها بل أن بنود كل لائحة لم تسن دفعة واحدة، وإنما كان يضاف إليها بنود جديدة من حين لآخر حسب ما يطرأ من مخالفات وملابسات، فكانت اللوائح تستكمل تدريجياً كلما أصبحت الحاجة ماسة

لذلك. وهكذا ظل بوذا طوال حياته يضع قوانين جماعته، يغير فيها أو يضيف إليها كلما حصل التباس في فهم بند من البنود أو أحس بنقص فيها وقد غفل عنه. بل إن وضع هذه القوانين لم يقف بعد موت بوذا إذ ظل مريدوه من بعده يسنون القوانين كلما تنشأ حوادث لم يجدوا لها نصاً في لوائح بوذا، وإن كانوا ينسبون هذه القوانين إلى بوذا نفسه وإن لم يضعها وذلك لكي يكسبوها قوة وتأثيراً على أعضاء الجماعة البوذية.

وأخذ اهتمام بوذا بسن هذه اللوائح يزداد ازدياد أعضاء جماعته، وبعد أن أصبحوا يكونون مجتمعاً مركباً معقداً يحتاج إلى كثير من التنظيمات حتى يتجنب التصادم والاختلاف بين أعضاء الجماعة، ويشيع المودة والصفاء بين الجميع، ويدعو إلى تماسك الجماعة، ويوطد علاقة الأعضاء بأهل القرى المجاورة حتى يظهر البوذيين بمظهر الزهاد الذين لا هم لهم إلا تحقيق الطهارة الحقة التي توصل إلى النرفانا مما يحث الأهالي على الإيمان بدعوة بوذا.

ويضم هذه اللوائح كتاب ضخم يعددها ويذكر ملابسات وضع كل لائحة وظروف ما طرأ عليها من إضافة، ويعرف هذا الكتاب باسم Vinaya Pitaka وقد ترجم لمختلف اللغات الأوروبية، وأحدث هذه التراجم ترجمة الأستاذة I. B. Horner الإنجليزية تحت اسم "كتاب النظم" (The Book of the Discipline) وهي الترجمة التي اعتمدت عليها اعتماداً رئيسياً في كتابة هذا الفصل.

وأول مشكلة واجهت الجماعة هي التحاق الأفراد بسلك الجماعة. فلقد أباح بوذا في أول الأمر دخول الجميع مهما اختلفت طبقاتهم إذ عندما يدخل أي فرد في الجماعة يفقد صفاته العائلية وتقاليده الطائفية، فلا يمتاز عضو على عضو إلا بمقدار جهده في سبيل تحقيق النرفانا. وكان يقبل الكبار والصغار الأصحاء والمرضى والمدنيين والجنود. وكان يقبل الرجال من دون النساء. ولكن جدث من الأحداث ما دفع بوذا إلى وضع شروط خاصة يجب أن تتوفر في كل من يرغب في الالتحاق بجماعته. فاشترط على كل طالب ما يأتي:

١- ألا يقل سنه عن خمس عشرة سنة، على أن يوافق والده خوفاً من أن يكون وحيدهما أو مصدر رزقهما وأملهما في المستقبل.

٢- أن يكون سليم البدن خالياً من الأمراض المعدية، ولا يقبل مريض إلا بعد أن يعالج ويشفى تماماً من مرضه حتى لا تنتشر عدوى مرضه بين أعضاء الجماعة.

٣- ان يكون مدنياً وليس جندياً عليه التزامات للدولة أو هارباً من ساحة القتال وذلك حرصاً على كيان الدولة وحفظاً لسلامة قوة جيشها وقدرته في الدفاع عن الحدود ورد خطر كل غزو خارجي.

٤- أن يكون برئ الذمة من كل دين أو تعهد، وعلى الطالب أن يسدد ما عليه من ديون وتعهدات قبل أن يطلب الالتحاق بالجماعة.

وبذلك لم يقبل بوذا كل فرد في جماعته، فلم يشجع الجندي الهارب أو الرجل المدين على أن ينضم إلى جماعته وذلك لأن كل من يريد أن يحقق النرفانا ويرغب في أن يقطع صلته بالحياة يجب أن تكون هذه القطيعة نظيفة طاهرة خالية من الشوائب والدنس.

أما بالنسبة للنساء فلقد امتنع بوذا عن قبولهم في أول الأمر ولم يسمح لهن بالالتحاق بالجماعة إلا بعد أن سعت زوجته يزودهارا وبعض كرائم سيدات قبيلة ساكيا إليه ليسلكن سلوك الزهاد، ثم ألح عليه أعز مريديه أناندا في قبولهن فرضخ بوذا في آخر الأمر وقبل انضمامهن إلى جماعته، وبعد ذلك أخذ يزداد عدد النساء في الجماعة مما اضطر بوذا إلى وضع لوائح خاصة بهن، فاشترط على طالبة أن تتحقق فيها الشروط الآتية:

١– أن لا يقل سنها عن عشرين عاماً على أن يوافق الوالدان أو الزوج إذا كانت متزوجة.

٢– لا يسمح بقبول الفتيات الصغار المتزوجات دون سن العشرين أو الزوجات الحوامل أو أمهات الأطفال الصغار أو العذارى.

وحكمة بوذا في وضع هذه الشروط هو أنه لا يريد أن تكون جماعته سبباً في إحداث أي نوع من الاضطراب في محيط المجتمع الهندي الذي يعيش في جنباته، وحتى لا تتأثر الأسرة ويتفكك كيانها بسبب هجرة النساء للبيوت مما يحث الأهالي على محاربة جماعته خصوصاً بعد أن اتهم بوذا بأنه

يعمل على عدم المجتمع لأنه يشجع النساء على الهروب من التزاماتهن العائلية وواجباتهن البيتية.

وكل من يتوفر فيه هذه الشروط من الرجال والنساء لا يقبل في الجماعة قبولاً تلقائياً نهائياً، إذ لا يقبل، إذ لا يقبل أي فرد من عامة الطوائف بمجرد أن يبدي رغبته في الانضمام إلى الجماعة إلا إذا كان من الزهاد أو الفلاسفة الذين تسمح لهم ثقافتهم الواسعة على استيعاب الاتجاهات البوذية. ولهم من القدرة الذهنية من الحكم على تعاليم بوذا وقبولها دون أن يشكو فيها. بخلاف عامة الناس فقد يكون لمعتقداتهم القديمة أثر عميق عليهم يحثهم فيما بعد على الخروج على تعاليم بوذا، ولذلك يعطى لهم مهلة ثلاثة أشهر من وقت طلبهم الالتحاق بالجماعة للتثبت من ايمانهم من تعاليم بوذا، وذلك حتى لا تقر الجماعة بقبول طالب ثم يعود بعد حين ويخرج عليها ويحن لعقيدته القديمة. وفي أثناء الأشهر الثلاثة يتسنى للطالب أن يتخلص نهائياً من كل أثر لدينه السابق على فكره، ويتضح له مدى قوة رغبته في الالتحاق بالجماعة حتى لا يتعثر في الطريق ويدرك تمام الإدراك ما هو مقبل عليه من حياة، كما يتسنى للجماعة من أن تتحقق من حسن سمعته وطيبة أخلاقه وصدق نيته في الانضمام إلى الجماعة، وإيمانه القوي بتعاليم بوذا.

وبعد هذه الأشهر الثلاثة يعقد للطالب مجلس بسيط لقبوله قبولاً مبدئياً في الجماعة. يتكون هذا المجلس من عدة أعضاء يكون على رأسهم بوذا نفسه أو مرشداً متمكن من قانون بوذا. في بداية هذه الجلسة يعلن

الطالب سواء أكان رجلاً أو امرأة عن اسمه ورغبته في الالتحاق بالجماعة، ثم يزكيه أحد المرشدين بأن يعلن عن تثبيته من صدق نية الطالب في الالتحاق بالجماعة، ويؤكد رغبته الوطيدة في اتباع هدى قانون بوذا وسعيه الحثيث في الوصول إلى النرفانا، كما يزكى سلوكه ويذكر بعض أعماله الخيرة ويبين مدى نبل سمعته فإذا اقتنع أعضاء المجلس يقبلون هذا الطالب قبولاً مبدئياً، ويعينون له مرشداً يشرف على توجيهه ونصحه واعداده لمعرفة تعاليم بوذا حتى تقبله الجماعة قبولاً نهائياً في مجلس آخر يعقد عادة بعد ثماني سنوات من القبول المبدئي.

ويعد القبول المبدئي إما يقيم الطالب مع مرشده أو يقيم في سكن آخر ويشرف المرشد على تثقيفه وتوضيح ما يغلق عليه من تعاليم بوذا ويقوم الطالب بخدمة مرشده بأن يساعده في ارتداء ملابسه وخلعها عند خروجه وعند عودته، ويعاونه في غسل يديه وفمه وأسنانه قبل الأكل وبعده، وينظف له طاسته، ويرتب أثاث مسكنه، يحضر له الكرسي والماء اللازم لغسل قدميه عند عودته من الخارج. وتسود علاقة المرشد بالطالب علاقة ود ومحبة، يعامل المرشد الطالب معاملة الأب الحنون الحريص على صالح ابنه، ويعامل الطالب مرشده معاملة الابن البار بوالده.

ولا يقطع الطالب عادة صلته بالحياة الاجتماعية قطعاً تاماً إذ يسمح له بالقيام ببعض الأعمال التجارية حتى لا يعتمد اعتماداً كلياً في طلباته الخاصة على الجماعة، فيحق له أن يكسب بعض المال الذي يمكنه من تلبية حاجياته الضرورية ولا يرهق الجماعة بالمطالب. فله أن يتاجر ويربح

ولكن لا يجب أن يتأخر فيما يتعارض مع الإنسانية ومبادئ تعاليم بوذا التي تدعو إلى المحبة والطهارة وتحرم قتل أي كائن حي، ولذلك لا يجب أن يتأخر في الأسلحة كالسيوف ولا يشترك في تجارة الرقيق التي تهدر الكرامة الإنسانية ولا يسهم في تجارة اللحوم والمشروبات الروحية والسموم القاتلة.

وبعد أن تنتهي فترة إعداد الطالب وهي ثماني سنوات ويكون عمره قد بلغ عشرين عاماً إذا كان رجلاً وسنتين وعشرين عاماً إذا كان امرأة يحق للطالب أن يطلب تعيينه تعيناً نهائياً في الجماعة لأنه يكون خلال هذه الفترة قد درس جميع نواحي قانون بوذا وتثبت منه وذهب عنه كل شك وريبة وصفا ذهنه صفاءً تاماً. فللطالب أن يستأذن بوذا أو مرشده في أن يعيشه عضواً عاملاً في الجماعة فإذا ما تأكد بوذا أو مرشده من طهارته وحين فهمه لتعاليم بوذا وقدرته على الاندماج في سلك جماعة بوذا يعقد للطالب مجلس يتكون من مرشدين– أو مرشدات إذا ما كان الطالب امرأة– لا يقل عددهم عن عشرة على رأسهم بوذا أو مرشد متمكن من القانون البوذي مضى على تعيينه تعييناً نهائياً عشر سنوات على الأقل.

يجلس المرشدون أو المرشدات على حصيرة في صفين متواجهين، ويجلس رئيس المجلس على رأس أحد الصفين. يزكي في أول الجلسة الطالب أحد المرشدين ويبين صلاحيته لعضوية الجماعة. بعد ذلك يتقدم الطالب إلى المجلس ممسكاً بيديه الأردية الصفراء الخاصة بالأعضاء ثم يحيي رئيس المجلس مقدماً هدية كرمز للتقدير والاحترام والإكبار، بعدها يطلب من المجلس ثلاث مرات أن يصبح مريداً، ويقول للرئيس "ارفق بي يا سيدي

وأقبل هذه الأردية واسمح بتعيني حتى أستطيع أن أهرب من الآلام وأجرب حياة النرفانا" فيأخذ الأردية منه ويلفها حول رقبته. ينسحب الطالب بعد ذلك من المجلس ويعود مرتدياً هذه الملابس الصفراء، ثم يركع أمام الرئيس مردداً هذه العبارة:

أتيت لألوذ ببوذا

أتيت لألوذ بالقانون

أتيت لألوذ بالنظام

ويقصد الطالب من ترديد هذه العبارة أن يعلن أنه يؤمن ببوذا وقانونه وتعاليمه التي توضح سبل الوصول إلى النرفانا، وأنه يرضى أن يتمسك بنظم جماعة بوذا ويخضع لشتى اللوائح التي تسير عليها الجماعة.

ثم يردد بعد ذلك قسماً مكوناً من عشرة بنود تنص على المبادئ الأولى التي يجب أن يتبعها المريد ليبدأ حياته الطاهرة ويسير في سلك النرفانا، وبنود هذا القسم هي:

١- أقسم ألا أزهق حياة.

٢- أقسم ألا أسرق.

٣- أقسم أن امتنع عن الاتصالات الجنسية.

٤– أقسم ألا أقول الكذب.

٥– أقسم أن امتنع عن شرب الخمر.

٦– أقسم ألا آكل في غير الأوقات المشروعة.

٧– أقسم أن امتنع عن الرقص والغناء والموسيقى والتمثيل.

٨– أقسم ألا اتزين بقلائد الزهور، ولا أتطيب بالعطور، ولا أتحلى بالمساحيق والجواهر.

٩– أقسم ألا أنام على سرير عريض أو مرتفع.

١٠– أقسم ألا أقبل من أحد ذهباً أو فضة.

بعد أن ينتهي من ترديد هذا القسم أمام المجلس يقدم الطالب احتراماته للرئيس، وينسحب على أنه صار مريداً أو عضواً.

غير أن تعيين المريد تعييناً نهائياً في الجماعة لا يتم إلا بعد أن يعقد له مجلس آخر من مرشدين لا يقل عددهم عن عشرة يطلب فيه المريد من رئيس المجلس ثلاث مرات أن يكون رئيسه، فإذا قبل الرئيس يذهب المريد إلى نهاية قاعة المجلس حيث تربط طاسة الشحاذة برقبته، ثم يذهب إليه المرشد الذي اقترح تعيينه ويحضره أمام رئيس المجلس. عندئذ يقف مرشد آخر بجوار المريد بحيث يكون بينهما، ويأخذ المرشدان في إلقاء أسئلة

تستفسر عن اسم مرشده، وعما إذا كان يملك طاسة الشحاذة والأردية الصفراء، وعما إذا كان خالياً من الأمراض المعدية وليس عليه التزامات للدولة أو للأفراد وأن سنه لا يقل عن عشرين عاماً. فإذا كانت إجاباته مرضية وتتمشى مع تعاليم بوذا ونظمه، واقتنع المرشدان بأحقية المريد في التعيين النهائي يبلغان المريد بذلك، بعدئذ يتقدم المريد راكعاً راجياً من المجلس أن يقبل تعيينه قائلاً ثلاث مرات "أيها الشحاذون أرجوكم أن تقبلوني وترفقوا بي وأدفعوني" ثم يأخذ المرشدان من جديد في اختباره أمام جميع أعضاء المجلس. فإذا لم يعترض أحد على تعيينه يتقدم كل مرشد وينحني أمام الرئيس مقرراً رضاه عن تعيينه في الجماعة، موافقته على أن يكون العضو الذي رشحه مرشداً له. وبعد أن تتم جميع إجراءات التعيين النهائي يتلو أحد المرشدين ملخصاً للوائح الجماعة، ثم ينتهي عقد المجلس وينصرف الجميع.

وقد يسكن العضو الجديد في أول الأمر في مسكن مرشده الذي يأخذ في نصحه وإرشاده. ولكن سرعان، ما ينتقل المريد إلى مسكن خاص به، وينصرف إلى بذل كل ما يستطيع من جهد للسيطرة على جميع أهوائه ونزعاته، ولا يشغل ذهنه بأمور الدنيا. ولذلك لا يسمح له بأن يشتغل بأي نوع من التجارة، وعليه أن يستجدي قوت يوم بيوم، ولا يقتني إلا ما هو ضروري من الملابس والفراش. فلا يحق له أن يحتفظ بقوت غده. كما يجب عليه أن يطيع نظم الجماعة ولا يخرج عليها، ويعمل على اتباعها ولا يعصيها، فإذا كان غير ملزم بطاعة أحد من البشر إلا أنه ملزم بطاعة قانون بوذا ونظم جماعته. إذ لا يكفي لكي يصير المريد مرشداً أن يطيع

قانون بوذا وإنما يجب عليه كذلك أن يثبت طاعته لنظم الجماعة واخلاصه في اتباعها فلا يخالفها في كبيرة أو صغيرة إن التمسك بقانون بوذا واتباع نظم الجماعة في نفس الوقت يحقق للمريد رقياً يدفعه في طريق النرفانا وهو طريق طويل شاق يتطلب من المريد نضالاً طاهراً تقشفياً مستمراً.

ولقد كانت حياة بوذا اليومية نموذجاً سار على منواله جميع المريدين والمرشدين. فلقد كانت حياة الوحدة في الغابات هي خير السبل للقضاء على الأهواء. ولكن بوذا منذ استنارته لم يعش منفرداً، ولم يعش منفرداً من البوذيين إلا أنفار قلائل من المتزمتين. ولذلك عاش معظم اتباع بوذا في جماعات في الغابات والحدائق، ثم بنى بهم بعض الأثرياء الفضلاء استراحات بعضها بنيت في حياته وبعض الأخر بعد وفاته. واشترط بوذا أن تبني هذه الاستراحات في أماكن غير آهلة بالحيوانات المتوحشة من ناحية وأن يكون حول هذه الاستراحات ساحات مكشوفة حتى يمكن أن يرى عامة الناس سلوك أتباع بوذا ويتخذون منهم قدوة لهم من ناحية، ويحثونهم على بناء الاستراحات لهم وتزويدهم بكل ما يحتاجون إليه من مواد البناء من ناحية أخرى. وإذا ما أخذ الأهالي في بناء هذه الاستراحات لا يجب أن يرهق الأعضاء الأهالي بطلباتهم، ويجب أن يتشقفوا عند استجداء مواد البناء، ولا يظهروا أي نوع من الجشع حتى لا ينصرف الناس عن مدهم بما يلزمهم في تشييد الاستراحات.

ويقيم الأعضاء في غرف حول فناء في هذه الاستراحات. وكان بوذا ينتقل من استراحة إلى استراحة عندما يكون الطقس صحواً، أما في فصل

المطر فكان يستقر مع جماعته في استراحة قريبة من مدينة أو قرية سكانها من الموالين لبوذا وجماعته حتى يتمكنوا من استجداء ما يلزمهم من طعام. وفي فصل المطر يكون عندهم متسع من الوقت للدراسة والبحث والتأمل وتلاوة القانون ونظم جماعته.

أما أثاث غرفة العضو فتتكون عادة من فراش غير مرتفع وغير عريض وكرسي وإناء لغسل القدمين والملابس وحصيرة. والعضو يستجدي عادة هذا الأثاث ولا يحق أن يملك من الأثاث ما هو فاخر وثمين أو أكثر مما يلزمه، وإذا حدث وأن وهب له أثاث يزيد عن حاجته يجب أن يعطيه للعضو المشرف على توزيع ما ينقص الأعضاء من أثاث.

فإذا كانت نظم بوذا تلزم الأعضاء بالتقشف في السكن فإنها تلزمهم بالتقشف في الملبس كذلك. وتوجب هذه النظم أن يلبس كل عضو ملابس رخيصة مصنوعة من أقمشة برتقالية اللون لا قيمة لها كالخرق البالية التي تؤخذ من أكوام الأوساخ. فإذا منح العضو قماشاً جديداً يجب أن يقص قطعاً صغيرة حتى يفقد قيمته التجارية ثم تصنع منه الأردية. وتتكون ملابس الرجل من ثلاث أردية وملابس المرأة من خمس.

أما عن أردية الرجل فهي تتكون من رداء داخلي يلبس داخل الاستراحة ورداء خارجي يلبس عند الخروج أو عند الذهاب إلى القرية، ثم عباءة فضفاضة تغطي جميع الجسم ما عدا الكتف الأيمن. ولا يليق بالمريد أو المرشد أن يدخل قرية أو مدينة بدون هذه العباءة، ولا يليق به أن

يلبس أردية واسعة. وتتكون أردية النساء من ثلاث أردية تشبه أردية الرجال ثم من ردائين آخرين هما صدرية ولباس وللاستحمام إذ لا يجب أن تستحم المريدة أو المرشدة عارية.

ولا يجوز للمريد أو المرشد أن يخلع هذه الملابس ويبدلها بغيرها لأن ارتداءها شرف له، ومن يخلعها يستحق الفصل من الجماعة. كما لا يجوز أن يلبس العضو غير الأردية المقررة ولا يتزين بالقلائد والحلي. ولا يسمح للعضو بأن يمتلك من الأردية أكثر من ثلاث إذا كان رجلاً ومن خمس إذا كان امرأة. وإذا كان هناك أردية تزيد عن حاجته يجب أن يسلمها للمرشد المشرف على توزيع الملابس على المريدين والمرشدين. وكثيراً ما كان ينقص الأعضاء بعض الأردية ولذلك حث بوذا عامة الناس من الموالين لقانونه أن يقدموا ما يزيد عن حاجاتهم من الملابس لأعضاء الجماعة وكان بوذا يتقبل هدايا كثيرة من الملابس. ونصنع هذه الملابس عادة من الوصف أو القطن. ولقد منع بوذا الأعضاء من لبس الأحذية خصوصاً الخشبية لأنها تسحق الحشرات الصغيرة عند المشي، وكذلك حرم لبس جلود الحيوانات ولكنه سمح للذين يعيشون في المناطق الشديدة البرودة باستعمال جلود الغنم والماعز والغزال كأغطية لتقيهم البرد.

وليس للعضو أن يأكل ما يشاء في أي وقت يشاء وإنما لا يجب أن يأكل المريد أو المرشد إلا ما يشحذه، ولا يتناول إلا وجبة واحدة في اليوم تكون في الفترة بين شروق الشمس والظهيرة، ويحرم عليه تناول وجبة غيرها

بعد الظهر وإن كان يسمح له أن يشرب مشروبات لا يكون من بينها المشروبات الروحية.

ففي الصباح يخرج المرشد مع مريده يومياً إلى القرية المجاورة أو المدينة القريبة من الاستراحة. ويمسك كل منها طاسة الشحاذة ويمر بكل بيت دون أن يطلب شيئاً، بل يقف خارج الكوخ أو أمام الباب أو النافذة التي تكون عادة مفتوحة نظراً لشدة الحرارة فإذا وضع أحد أي طعام في الطاسة عليه أن يدعو متمنياً له الخير ثم ينصرف، وإذا لم يعط شيئاً يستمر في سيره صامتاً. وهكذا يشحذ المريد أو المرشد طعامه من مختلف بيوت القرية وأكواخها دون أن يميز بين بيوت الأثرياء وأكواخ الفقراء. وعندما يتجمع له في الطاسة كمية من الطعام تكفيه لوجبة اليوم يعود إلى مسكنه ويأخذ في تناول هذا الخليط من المأكولات قبل وقت الظهيرة غير شره أو متلذذ بجودة الطعام أو مشمئز من اختلاط أنواعه، ويصرف ذهنه أثناء تناول الطعام إلى التفكير في حقيقة تلاشي الجسد وكيف أنه يبلى في النهاية وليس هناك جدوى من الأكل إلا أنه يحفظ الجسد الفاني لحين بلوغ النرفانا.

ولقد كان بوذا في أول الأمر يسمح بتلبية دعوات الأغنياء الموالين لتعاليمه إلى تناول الطعام في منازلهم، وكان يسمح أيضاً لأهل القرى والمدن بإحضار الطعام إلى الاستراحات وفي مساكن المرشدين والمريدين في المناسبات والأعياد، وكان بوذا لا يمانع في أكل كل ما يعطى لهم من طعام سواء به لحم أو خال من اللحوم، وإن كان قد منع أكل لحوم الحيوانات التي تذبح خصيصاً للأعضاء، ولحوم الفيلة والخيل لأنها من الحيوانات

الملكية، ولحوم الحيوانات المتوحشة كالنمر والفهد. ولكن البوذيين المتشددين حرموا أكل جميع أنواع اللحوم، ورفضوا تلبية الدعوات إلى الولائم، ولم يقبلوا أي طعام يقدم لهم وإنما حرصوا على ألا يأكلوا إلا مما يشحذوه بأنفسهم ويجمعونه في طاسة الشحاذة الخاصة بهم.

وكما أن العضو لا يجب أن يمتلك أكثر من ثلاث أردية لا يجب أن يكون عنده أكثر من طاسة واحدة على ألا تكون من الذهب أو الفضلة وإذا وهب طاسة ذهبية أو فضية يجب أن يرفضها أو يطلب استبدالها بأشياء تحتاج إليه الجماعة كالأدوية والعقاقير. وإذا كان عنده أكثر من طاسة يجب أن يعطي ما يزيد عن حاجته للمرشد المكلف بتوزيع الطاسات على أعضاء الجماعة.

وهكذا يجب أن يعيش المرشد أو المريد متقشفاً في المسكن وفي الملبس وفي المأكل، فقيراً لا يمتلك أكثر ما هو ضروري من فراش وملابس. وإن سمح للعضو فيما بعد بأن يمتلك الكتب وغيرها من الأشياء الخاصة التي لا تتنافى مع التقشف ولا تدل على حب الاستحواذ والامتلاك. ولم يعترض بوذا كذلك على أن يحتفظ الأعضاء الأغنياء بممتلكاتهم من الأراضي والمنازل حرصاً على صالح الجماعة وتشجيعاً للأثرياء بالاندماج في جماعته وبذل الأموال من أجل تزويد الأعضاء بما هم في أمس الحاجة إليه.

وإذا فرض على العضو أن يعيش متقشفاً فقيراً فلقد طلب منه كذلك أن يكون مطيعاً. وهذه الطاعة ليست لشخص من الأشخاص أو

لهيئة من الهيئات وإنما هي لقانون بوذا. على كل عضو إذن أن يطيع القانون. وإذا لم يطلب منه أن يخضع لسيطرة عضو من الأعضاء إلا أنه يجب أن يحترم كل عضو أقدم منه في الجماعة.

إن طاعة المريد للمرشد طاعة عمياء وخضوعه له خضوعاً تاماً لا توصل إلى النرفانا إذ لا يستطيع أن يبلغ أحد النرفانا بأن يقيد فكره وعمله بالغير إن طريق النرفانا هو الجهاد الحر لا يستطيع أن يلقنه المرشد للمريد. إنما يتوصل إليه بالذهن الصافي والتأمل الطاهر والفكر الطليق من الشهوة والضغط والإلزام. وعلى كل عضو إن يكون حراً لا يستسلم لسحر مرشده ولا يبهر بقدرته الروحية إذ الجميع متساوون في كل شيء وما حققه المرشد يستطيع أن يحققه أي عضو، وإنما يختلف الأعضاء بقدرتهم على السير المتواصل في طريق الجهاد من أجل بلوغ النرفانا، ومن لا يتعثر في الطريق لابد أن يصل الى النرفانا بجهده الخاص وبعون نضاله الشخصي.

وكذلك للعضو مطلق الحرية في أن يطيع نظم الجماعة أو يعصيها، وله أن ينفذ أوامرها ويتجنب نواهيها دون اجبار أو تعنت، وإن التحاقه بالجماعة ليس أمراً لا سبيل للتخلص منه إذ يمكن لكل عضو من أعضاء الجماعة أن يخرج من الجماعة إذا ما تنازل عن قسمه الخاص بطاعة قانون بوذا ونظم الجماعة.

ويتبين من ذلك أن جماعة بوذا ليست سرية تنشر تعاليمها في الخفاء وتطلب من أعضائها الطاعة العمياء وإنما هي هيئة تترك للعضو مطلق الحرية ولا تحتم عليه أن يخلص لها بدون إيمان صادق بتعاليمها ولا تستغل هذا الإيمان بأن تفرض عليه طاعة عمياء تحد من انطلاق فكره وتحول دون صفاء ذهنه. إن عمل الفرد نفسه وتثقيف فكره هو السبيل الرئيسي لتحقيق النرفانا. وإن تعاليم المرشد للطالب واحترام العضو لمن هو أقدم منه ما هو إلا تمهيد لدفع الطالب في طريق الجهاد الشخصي، وإن اقتناع الفرد بطاعة قانون بوذا ونظم الجماعة ما هو إلا المشعل الذي يهدى العضو الى طريق النرفانا.

فإذا ما أخطأ الطالب في سلوكه، أو خالف المريد لوائح الجماعة، أو حاد المرشد عن هدى الحياة الفاضلة وارتكب إثماً صغيراً كان أو كبيراً عليه أن يعترف به لا لنفسه بل لغيره في اجتماع عام، ويتقبل ما يفرض عليه من عقاب حتى يكون طاهراً نقياً على الدوام، لا يلوثه إثم أو يدنسه ذنب، فيقوى على مغالبة الأهواء وقهر النزعات الشريرة ويتخلص من الآلام ويقضى على القلق ويستعد لحياة النرفانا الهادئة.

ولذلك اهتم بوذا بعقد اجتماعات دورية مرتين في الشهر عند بداية الشهر القمري وفي منتصفه. يتلو في هذه الاجتماعات لوائح الجماعة مرشد متمكن من تعاليم بوذا، وعلى جميع الحاضرين أن يصغوا اليه بانتباه تام حتى يعيها كل منهم وعيا شاملاً دقيقاً ولا يخالفها أحد على الاطلاق. فإذا حدث أن خالفها دون أن يدري، ولم يشعر بأنه قد أتى إثماً فإن تلاوة

اللوائح أن خالفها دون ان يدري، ولم يشعر بأنه قد أتى إثماً فإن تلاوة اللوائح تنبهه الى إثمه فيسرع الى الاعتراف به لبوذا أو لأحد المرشدين أو في الاجتماعات الدورية حتى يتطهر من دنس الإثم الذي اقترفه دون أن ينتبه اليه.

وفي بداية الاجتماع الدوري يجب أن يعترف كل عضو بآثامه حتى يكون طاهراً عند تلاوة قائمة لوائح بوذا، إذ لا يجب أن يسمعها إلا كل مرشد طاهر متمكن من تعاليم بوذا. ولذلك لا يجب أن يحضر هذه الاجتماعات عامة الناس أو الطالب أو المريد الذي لم يتم تعيينه النهائي أو المرشد الآثم.

وقبل أن تتلى قائمة اللوائح تصف الوسائد في حجرة الاجتماع في صفين متقابلين، ويجلس رئيس الاجتماع على رأس أحد هذين الصفين. وفي رأس الصف الآخر يجلس أكبر بقية الأعضاء رتبة. بينما يجلس بجوار الرئيس الثالث في الرتبة، ويجلس في مواجهته الرابع في الرتبة وهكذا يجلس كل عضو حسب رتبته التي تحدد بأسبقيته في التعيين وأقدميته في سلك الجماعة. وبعد ذلك يركع جميع الأعضاء بينما يظل الرئيس جالساً ويطلبون من الرئيس المغفرة عما أتوه من مخالفات في العمل والقول والفكر ثم يجلس العضو الذي يأتي بعد الرئيس في الأقدمية. ويستمر الأعضاء الراكعون في طلب المغفرة حتى يجلسوا جميعاً وبعد ذلك يركعون ثانية ويتلون أدعية تمتدح بوذا وتثني على قانونه ونظم جماعته.

وإذا كان الإثم الذي اعترف العضو بارتكابه مجرد مخالفة بسيطة يعاقب بعقوبة بسيطة ككنس فناء الاستراحة وإزالة ما حول الشجرة المقدسة من أوساخ. أما إذا أتى إثماً كبيراً فإنه قد يحال الى هيئة تحاكمه وتقرر العقاب حسب عظم جريرته وحسب مركزه في الجماعة وأقدميته في التعيين.

ولا يسمح لآثم بحضور الجلسات التي تتلى فيها قائمة اللوائح للجماعة. إذ قبل أن يقرأ المرشد المتمكن من تعاليم بوذا هذه اللوائح يسأل رئيس الاجتماع كل عضو ثلاث مرات عن طهارته وعن براءته من الإثم؛ فإن ظل العضو صامتاً كان بريئاً من الإثم، لأن الآثم يجب أن يعترف بإثمه. كما لا يعقد الاجتماع إلا بعد حضور جميع الأعضاء، ولا يجوز لعضو أن يتغيب عن هذه الاجتماعات إطلاقاً إلا عند الضرورة القصوى مثل المرض الشديد أو الجنون. وإذا حدث وتغيب عضو لمرضه يجب أن يرسل براءته من الآثام الى المجلس. إذ لا تتلى قائمة لوائح الجماعة إلا بعد أن يعلن طهارة جميع الأعضاء الحاضرين منهم والغائبين. وعند تلاوة هذه اللوائح يجب أن يصغى الجميع اليها في يقظة وانتباه حتى يتجنبوا الآثام، ويعرفوا ما يكونوا قد وقعوا فيه من أخطاء، وما ارتكبوه سهوا من مخالفات لعدم إلمامهم الدقيق بلوائح الجماعة.

وتشتمل قائمة اللوائح على ثلاثة أنواع من اللوائح: أولها تنص على ما يجب أن يتبعه العضو ومن سلوك حتى يبلغ النرفانا، وثانيها تعدد اللوائح التي تحذر من إتيان أفعال تبعد السالك عن طريق الاستنارة وأن

من يأتي هذه الأفعال يعد آثماً، وثالث هذه اللوائح هي اللوائح التي تحدد العقوبات حسب جريرة العضو ومكانته في الجماعة. وعلى كل عضو وأن يلم بهذه اللوائح إلماماً تاماً، وليس لآثم أن يدعى الجهل بها لأنه يفرض عليه قراءة جزء منها يومياً، كما تتلى عليه مرتين في الشهر في الاجتماعات الدورية؛ فمن يجهلها بعد ذلك لا شك في أنه آثم ومقصر.

أما من يرتكب إثماً ولا يعترف به وأتاه سهواً دون أن يشعر أنه اقترف ذنباً يجب أن يبلغ عن إثمه غيره من الأعضاء لأنه من واجب كل عضو أن يبلغ عن مخالفات أي عضو. على أن يكون صادقاً في تبليغه، ولا يقصد به التشهير بسمعة عضو آخر، كما أن التستر عليه في مخالفاته بعد اشتراكاً في الإثم. ويقدم العضو المخالف بعد ذلك أمام هيئة مكونة من ستة. مرشدين لمحاكمته. والآثام التي يقدم بسببها الأعضاء أمام هيئة المحاكمة كثيرة متنوعة. وقصد من هذه المحاكمات حماية الجماعة من التفكك والتنافر وإلزام الجميع بحدود الطهارة والفضيلة حتى يعيشوا في انسجام ومحبة، ولا يسعون إلا لهدف واحد هو القضاء على الألم والتخلص من القلق والحياة في النرفانا الهادئة.

وأعظم الآثام التي يجب أن يبتعد عنها الجميع هي: القتل والسرقة والكذب والزنا والسكر، وهي آثام يقسم كل عضو عند تعيينه بتجنبها، كما يقسم بالابتعاد عن كل ما لا يناسب حياة الزاهد المتقشف، فلا يقتنى فضه أو ذهب، ولا يتزين بالزهور والحلى، ولا يذهب الى دور اللهو، ولا يرقص أو يغنى، ولا يكون كذلك جشعاً في جمع الهبات أو شرها في الأكل.

ومن الآثام التي نبه اليها بوذا تجنب تشهير العضو بعضو آخر بقصد تشويه سمعته والحط من مركزه، والابتعاد عن المشاغبة وإثارة المنازعات والفتن بين الأعضاء مما يسبب كثيراً من المتاعب التي تؤدى الى حزازات تمزق تماسك الجماعة ووحدتها. وتعتبر لوائح الجماعة كل من يخفى طاسة أو رداء يزيد عن حاجة العضو آثماً يستحق العقاب. وتحذر اللوائح كذلك النساء من إثارة المشاكل وسب بعضهن بعضاً، وتمنعهن من التزين والغناء والرقص والتمثيل والاستحمام عاريات في الأنهار.

وتضم قائمة اللوائح بنوداً كثيرة تحدد علاقة الرجل بالمرأة داخل الجماعة فتحرم على المرأة سوء مخاطبة الرجل، فلا تسبه لأي سبب من الأسباب، أو تجلس أمامه دون استئذان، وإذا ما جلست لا يجب أن تجلس في استرخاء وقح، ولا تدخل استراحة الرجال إلا بعد أن يسمح لها بالدخول. كما تطلب هذه اللوائح من الرجال غض النظر عند التحدث أو مقابلة المريدات والمرشدات وعندما يتحدثون اليهن يجب أن تكون نواياهم طاهرة غير دنسة، فيعتبر المسنات منهن كالأمهات والصغيرات منهن كالأخوات إذا كان شاباً أما إذا كان مسناً يجب أن يعتبر المسنات كأخوات له والصغيرات كبنات له.

ولعل من أهم الآثار التي حرص بوذا على أن يلح في طلب تجنبها هي مطالبة العضو برفع مكانته في الجماعة، لأن العضو لا يقدر أن يحكم على مدى رقيه في طريق النرفانا، وحتى اذا بلغ رقيه عظيمة واقترب من النرفانا لا يجب أن يطلب مرتبة رفيعة في الجماعة، إنما يجب أن ينتظر حتى

يرفعه بوذا الى المكانة اللائقة بجهاده دون أن يطالب بهذا الحق، لأن ذلك يدل على أنه منصرف حقاً الى تحقيق النرفانا ولا يشغله أي شاغل عن بلوغ هدفه، وأنه متواضع لا يفاخر في غرور وكبرياء بمجاهداته ويجبر الجماعة على ترقيته، إنما يجب ترك الأمر لتقدير بوذا وبقية المرشدين دون أن يلتفت لشيء غير الوصول الى الاستنارة.

ويقدم المخطئ الى هيئة مكونة من ستة مرشدين إذا كان رجلاً، وست مرشدات إذا كان امرأة. ثم تأخذ المحكمة تحقق في إثمه. فإذا كان هذا الإثم بسيطاً حكمت عليه الهيئة بعقاب هو بمثابة نوع من المجاهدة يطهر الجسد من الخطايا، أما إذا كان الوزر كبيراً فيختلف العقاب حسب عظم الوزر من ناحية وحسب مكانة المخطئ في الجماعة من ناحية أخرى. وقد يفصل من الجماعة إذا ما قتل إنساناً أو سرق ولو شيئاً تافهاً أو شرب خمراً أو اقترف الزنا، وقد تنزل من مكانته في الجماعة وتقل رتبته ويفقد مقامه، وعليه أن يجاهد من جديد في سبيل الوصول الى المركز الذي فقده. أما إذا ثبت أنه برئ وأن المبلغ عنه قصد التشهير به والحط من مركزه غيرة منه وحسداً عليه فيقدم المبلغ الكاذب الى هيئة الاتهام لمحاكمته، وقد تسحب منه طاسة الشحاذة، وهي عقوبة قاسية تنزل العضو من مرتبة المرشد أو المريد المعين الى مرتبة الطالب.

وهكذا وضع بوذا هذه اللوائح والقوانين حرصاً على كيان الجماعة وصوناً لها من التفكك، فضلاً عن أنها تحول دون تنازع الأعضاء وتنافسهم وتمكنهم من التصادم والتنافر، بل أنها تعمل على نشر المحبة والصفاء

والوئام بين أعضاء الجماعة، وأظهرت الجماعة أمام الأهالي في صورة طاهرة نقية أثبتت لهم أن غرض بوذا وأتباعه هو بلوغ النرفانا فقط ولا شيء آخر ولا يصرفهم عن بلوغ هذا الهدف أي شاغل.

إلا أن بوذا لم يكتف بسن هذه اللوائح التي تحدد علاقات أفراد الجماعة ببعضهم بعضاً ولكن اهتم كذلك بوضع التشريعات التي تنظم علاقات أعضاء الجماعة ببقية أفراد المجتمع الهندي، خصوصاً بالأهالي الموالين للبوذية فاهتم بوذا بأن يكون أعضاء الجماعة على علاقة طيبة بالأهالي وأن يعملوا على توثيق هذه العلاقات حتى يكسب حبهم وتقديرهم واحترامهم وينال عطفهم على الجماعة، لأنه بدون معونتهم لا بقاء للجماعة، خصوصاً بعد أن ازداد عدد الأعضاء وأصبحوا لا يمكنهم أن يعيشوا على ثمار الغابات، وفي حاجة دائمة الى هبات المحسنين من المحبين للبوذية ولذلك منع بوذا الأعضاء من إساءة معاملة الأهالي، أو التشنيع بهم وبعائلاتهم، أو الحط من كرامتهم حتى لا يكونوا عرضة لكراهيتهم، ولا يقفوا في وجه دعوتهم ومحاربتهم، ويمنعوا عنهم المساعدات الضرورية لبقاء الجماعة، وطالب بوذا المرشدين والمريدين بحسن معاملة الأهالي قاطبة، واذا ما طلبوا منهم شيئاً يجب أن يطلبوه بلطف وأدب، وأن يرشدوهم الى طريق الصواب والى الفضيلة ويبعدوهم عن الشر والرذيلة، ويبينوا لهم طريق الخلاص ويشجعوهم على تحقيق النرفانا؛ بذلك يمكن أن تنتشر تعاليم بوذا بين الأهالي دون أن يعوقها عائق.

ولكي يضمن بوذا حسن معاملة الأهالي لأعضاء جماعته عنى بوضع نصائح وإرشادات للموالين للبوذية حتم عليهم إتباعها حتى يتصفوا بالتقى والورع والفضل، وإن لم يلزمهم بالانضمام الى سلك الجماعة فطلب منهم أن يكون الاحترام والحب والود أساس علاقة الأفراد ببعضهم بعضاً في المدينة أو في القرية؛ إذ يجب أن يحترم الفرد والديه ومعلميه، وتحترم الزوجة زوجها، ويتبادل الأصدقاء وأبناء القبيلة الحب والاحترام. وطلب بوذا من الأب أن يحسن تربية أولاده وينشئهم على الفضيلة، وطلب من الزوج أن يحترم زوجته فلا يهملها ويخلص لها ويعطيها سلطة في بيتها ويزودها بالحلى وطلب من الزوجة أن تبادل زوجها احتراماً باحترام واخلاصاً بالإخلاص وتقوم بالأعمال البيتية وتحرص على مصلحته وتكون نشيطة تعمل على نشر السعادة في البيت، وطلب بوذا من أبناء القبيلة أن يكونوا أصدقاء يخلصون لبعضهم بعضاً ولا يتناولون إلا حلو الحديث ويحرص كل منهم على مصلحة الآخر ولا يحاول أن يضره ويحافظون على الوعد ولا يخنثون العهد، وطلب بوذا من السيد أن يحسن معاملة الخادم أو العبد فلا يكلفه بأعمال تفوق طاقته ويزوده بالطعام اللازم ويعطيه الأجر المناسب ويقوم بعلاجه عند المرض ويشترى له الدواء ويمنحه أوقات للراحة. وطلب من الخادم أو العبد أن يبدى نوايا طيبة نحو سيده ويخدمه بإخلاص فيستيقظ مبكراً وينام مبكراً ويكون أميناً على ممتلكات سيده نشيطاً في العمل ولا يسوء سمعة سيده بالباطل ويشهر به زوراً وبهتاناً. كما طلب بوذا من الأهالي أن يحسنوا معاملة رجال الدين بحيث تنسم بالحب والاحترام والعطف، وان

يرحبوا بهم إذا ما قصدوهم ويمنحوهم ما يحتاجون اليه من لوازم مادية ضرورية.

وقصد بوذا من وراء هذه التشريعات أن يوطد العلاقات بين أعضاء الجماعة وأفراد المجتمع الذين يعيشون بينهم، وحتى تنشأ محبة متبادلة واحترام متبادل قد يؤديان الى كسب طلاب جدد للجماعة ونيل الجماعة حاجاتها الضرورية. ولذلك لم يكن بوذا مجرد رجل دين إذ لم تقف رسالته عند إعلان دينه وكسب الأتباع والأعوان، وانما كان رجل تشريع كذلك درس ظروف المجتمع الهندي الذي يعيش فيه، واستفاد من تشريعات الديانات الهندية التي كانت منتشرة في الهند في ذلك الوقت وسن تشريعات جديدة تناسب أهداف دينه وتحقق النرفانا للجميع. إلا أن هذه التشريعات تمتاز على غيرها من التشريعات الدينية أنها لم تشر الى عبادة الآلهة لأن دين بوذا لا يعرف الإله، ولم تطلب من الأتباع تقريب القرابين لأنه لا يوجد ما تقدم اليه هذه القرابين وبالتالي لا يوجد في تشريعات بوذا أي نوع من الشعائر الدينية التي تحتاج الى معابد وكهنة.

الفصل السابع

الحياة اليومية لأعضاء الجماعة

يستيقظ كل عضو في الجماعة– وعلى رأسهم بوذا– مبكراً في الفجر ثم يغتسل، ويكنس الطالب أو المريد غرفة مرشده، وينظف قسماً من فناء الاستراحة، أو يكنس ما حول الشجرة المقدسة وهي من نوع الشجرة التي استنار تحتها بوذا، ثم يذهب ويحضر الماء الذي يحتاج اليه مرشده في هذا اليوم، وينقيه من الرواسب ويعده للاستعمال. بينما يجلس المرشد في خلوة ويأخذ في تأمل تعاليم بوذا ونظم الجماعة، وكل ما صدر عنه من أفعال في اليوم السابق ليتبين منها الخطأ من الصواب ويتأكد من طهارته، ويستمر هذا التأمل الى أن يحين موعد جمع الصدقات للوجبة اليومية، ثم يلبس الرداء الخارجي والعباءة ويمسك طاسة الشحاذة، ويذهب الى المدينة القريبة او القرية المجاورة لطلب الصدقات. وقد يذهب بوذا منفرداً أو يستصحب معه بعض المرشدين والمريدين، وقد يذهب المرشد بمفرده وأحياناً يستصحب بعض المريدين. وإذا ما ظهر بوذا في شوارع المدينة أو دروب القرية يتسابق الأهالي على اعطائه هو ومن معه كل ما يحتاجون اليه من طعام. وبعد الجولة اليومية يعود الجميع الى الاستراحة. ويغسل المريد قدمي بوذا أو مرشده، ثم يضع طاسة الطعام أمامه ليأكل. وبعد أن ينتهي من تناول الوجبة اليومية يغسل المريد الطاسة.

بعد أن ينتهي جميع أعضاء الجماعة من الأكل يتجمعون حول بوذا الذي يأخذ في القاء بعض الدروس في القانون ونظم الجماعة، ويناقشهم في طرق التأمل وأساليبه، ويبين لهم كيفية التدرب عليه حسب قدرات كل فرد واستعداده. بعد ذلك يستأذن كل عضو في الانصراف، ويذهب الى مكان خلوته الذي تعود أن يعتزل فيه أوقات من الليل والنهار. فمنهم من يذهب الى الغابة ويجلس في ظل شجرة، ومنهم من يلجأ الى مغارات الجبال والتلال ومنهم من يذهب الى غرفته في الاستراحة، ويأخذ في دراسة ما عنده من كتب تتناول بوذا ولوائح الجماعة، أو ينسخ بعض الكتب، ويسأل مرشده عن الفقرات التي يشق عليه فهمها. بينما يبقى بوذا في غرفته، ويستلقى بعض الوقت طلباً للراحة، يستيقظ بعدها نشط الفكر، منتبه الذهن متجدد الحيوية، ويأخذ في التأمل من جديد في حقائق الوجود.

وكثيراً ما يجتمع أهل المدينة القريبة أو القرية المجاورة في قاعة المحاضرات في الاستراحة، ويجلس بوذا على حصير على الأرض، ويلقى عليهم دروساً في التعاليم البوذية، وبعد أن ينصرف الأهالي يستحم بوذا إذا ما رغب في ذلك أو يبرد المريد أطرافه بالماء، ثم يرتدى الرداء الخارجي والعباءة ويعتزل الجميع طلباً للخلوة، ويغرق في بحر من التأمل. بينما يأخذ الطلاب والمريدون في تنظيف الاستراحة وكنسها. وبعد غروب الشمس يوقدون المصابيح، ويأخذ كل منهم في الاستماع لدروس مرشده أو في تلاوة ما ستظهره من فقرات من القانون. وإذا ارتكب إثماً يعترف لمرشده بكل ما آتاه من آثام حتى يتطهر. يجتمع المرشدون بعد ذلك في غرفة بوذا ويستفسرون منه عن كل ما غمض عليهم من تعاليم بوذا وما صعب عليهم

من طرق التأمل، أو يتطلبون منه أن يلقى عليهم درساً في أحد الموضوعات البوذية، ثم يستأذنون في الانصراف. وقبل أن ينام بوذا يمضي بعض الوقت في التأمل ثم يقوم بتمرينات لتحريك قدميه من عناء الجلوس على الأرض حتى منتصف الليل.

يتضح من عرض حياة أعضاء جماعة بوذا اليومية أنها خالية من العبادات والشعائر فهم لا يذهبون الى المعابد، ولا يصلون أو يصومون أو يتلون الدعوات. وأحسب أنه لا يوجد عندهم ما يشبه الشعائر إلا جمع الصدقات والتأمل إذا ما اعترنا جمع الصدقات والتأمل كنوع من الشعائر حيث أن بوذ فرض على الجميع جمع الصدقات يومياً وألزمهم بالأكثر من التأمل. ولقد سبق أن تحدثنا عن موضوع جمع الصدقات، أما عن التأمل فإن بوذا يرى أنه هو السبيل الوحيد الذى يقضى على الألم والقلق، ويتيح للعضو فرصة للسيطرة على الأهواء والشهوات، ويوصل الى الهدوء والاستقرار أي يحقق النرفانا. ولذلك يجب على كل عضو أن يمضي معظم يومه في التدرب على التأمل حتى يجيد طريق النجاة، فلا نعجب إذا أعتبر بوذا التأمل من أهم أعمال العضو اليومية.

وإذا كان التأمل قوام الحياة اليومية لكل عضو فلا يمكن أن يكون عندنا فكرة واضحة عن حياة الأعضاء اليومية ما لم نعرف كل ما يتصل بهذا التأمل. ان التأمل الصحيح لا يكتسب بدون أن يتبع العضو طرقاً معينة يتدرب عليها يومياً حتى يقدر بالمران والخبرة أن يزاول التأمل مزاولة صحيحة، وأن يصل بالتأمل الصحيح الى أهدافه. وللتأمل عدة مراحل

تبتدأ بأن يحاول العضو تسكين حركات جسمه بأن يجلس في مكان هادئ جلسة القرفصاء أو يستلقي في استرخاء تام ويسكن جميع أطراف جسمه تسكيناً كاملاً، ولا يحرك أي عضو منها إلا لحاجة ملحة وفي بطء وهدوء؛ ثم يأخذ بعد ذلك في تصفية ذهنه من كل ما يشتته ويصرفه عن التأمل بأن ينتبه بكل وعيه لعملية التنفس من شهيق وزفير دون أن يحاول التدخل في عملية التنفس نفسها ويتركها تسير سيرها الطبيعي. بعد فترة من السكون الشامل يصبح الجسم هادئاً ساكناً، ويصير الذهن صافياً عميقاً، ويشعر العضو براحة واطمئنان تقضيان على كل ما سببته له حياته اليومية من تعب وقلق. في هذه الحالة يكون الذهن قد أعد إعداداً تاماً للتأمل فينصرف الى موضوعات تأمله بكل كيانه لا يشغله عنها شاغل، ويحصر فيها تفكيره دون أن يطرق عليه أي فكرة دخيلة أو شعور عارض يعرقل تأمله ويبعده عن هدفه.

أما عن موضوعات التأمل فتشمل تعاليم بوذا وإزالة النوازع الشريرة وكسب نزعات خيرة من ناحية، ونقد الذات ومحاسبتها على ما قد ارتكبته من آثام من ناحية أخرى. ويبدأ العضو تأمله بتأمل موضوع الجسد وما يصيبه من مرض وشيخوخة وموت فيتأكد من أنه بال وسبب استمرار الولادات ومبعث الشهوات ومصدر الأهواء، ثم يتأمل موضوع القس فلا يجد شيئاً ثابتاً في الفرد، فالحواس متغيرة متقلبة، والانفعالات تتبدل من حين لآخر، والمشاعر لا تثبت على حال، حتى الأفكار تتطور وتتغير فليس هناك نفس أو أي شيء ثابت في كيان الإنسان فيثق في أنه لا يوجد حقاً روح أو نفس. ثم يتأمل في سبب تعلق الفرد بالعالم الأرضي أو بالعالم

الآخر، فيجد أن تعلقنا بالحياة الأرضية يرجع الى قوة الشهوات وسطوة للرغبات، وأن ميلنا للحياة في عالم آخر بعد الموت يقويه الاعتقاد بوجود الروح أو النفس أو ما شابه ذاك، ويدعو ذلك العضو الى محاربة كل ما يبعثه الجسد من انفعالات حتى يقضى عليها، والى مقاومة كل ما تنشره الأديان الأخرى من الأفكار الدينية التي تدور حول النفس والروح حتى لا تحلم بحياة في العالم الآخر فيبتعد عن عرضه النهائي وهو تحقيق النرفانا التي لا تتحقق في عالم أرضى أو في عالم سماوي ولا تحتاج لشعائر وتقريب القرابين ودخول المعابد، مما تنادى به الأديان الأخرى.

وقد يدعو ذلك الى نوع الشك، ولذلك يجب أن يتأمل العضو في ضرر الشك وحيرة التردد وقلق الريبة، وكيف أن الشك والتردد والريبة تبلبل الذهن وتشتت الفكر وتبعد العضو عن هدفه. وليس الشك وحده النقيصة الوحيدة التي تفسد التأمل، بل هناك نقائص أخرى كثيرة يجب أن يتأملها العضو ليقضى على أشرارها. ولذلك يجب أن يتأمل كل عضو في الحقد والحسد وكيفية التخلص منهما، وفي الكسل والخمول والبلادة وكيف أنها تعوق الفرد عن سيره الحثيث نحو النرفانا، وفي الجهل الذي يجعل العضو يتصرف تصرفات أبعد ما تكون عن السلوك السوي، وفي الجشع، وفي الكبرياء، وفي الطيش والنزق، وفي قلة الحياء والوقاحة وكيف أنها لا تساعد على كسب الطهارة وتعرقل الصفاء، وأن التحرر من هذه المساوئ بالتأمل المستمر فيها ضروري لأنها تبعد العضو عن الهدوء والاستقرار.

وبعد أن ينتهي العضو من تأمل النواقص الخلقية وكيف يتخلص منها يأخذ في تأمل الكمالات الخلقية وكيف يكتسبها. فيبدأ في تأمل المنح والعطاء حتى يدرك كيف أن الإحسان يولد سعادة وسروراً، إذ يبعث على حب الآخرين، ويدرب الفكر على التجاوب مع الشفقة والرحمة. ثم يتأمل الواجب وكيف أن أداءه يتنافى مع الكذب وقلة الحياء وشرب الخمر، وأن التدرب على تأمله يكون عن طريق تقوية الإرادة وتصفية القلب، ولا يتأتى ذلك بدون العمل على تحرير الإرادة والقلب من أشرار الجسد، وذلك يدعو إلى التأمل في إنكار الذات وكيف أن الغيرية تسوق الى حب الجميع وأن تدريب الفكر على تأمل الحب يحرر الذهن وينقيه، ويسطع عليه بنور وضاح يقوى من إيمانه بالنرفانا؛ ولذلك يجب أن ينمى الفرد حب جميع أفراد البشرية في قلبه، ويدرب فكره على طول الإمعان في تأمل الحب حتى يصفو إيمانه بالنرفانا صفاء تاماً. ويدرب العضو كذلك ذهنه على التأمل في مغزى شحاذة الوجبة اليومية وكيف أنها تحرره من حب الامتلاك والجشع، وأن التدرب على تأمل استجداء الطعام يحث على تخلص الجسد من الروابط الأرضية. بينما التأمل في الشجاعة ضروري لتقوية نزعة الإرادة في القضاء على الأنانية ومحاربة النزعات والرغبات والأهواء. أما التأمل في الصبر يقوى الذهن على تحمل كل ما يصادف العضو من متاعب في سبيل القضاء على الشهوة واللذة والمسرات. ويجب أن يصوب فكره نحو الحقيقة بتأملها على الدوام حتى لا يحيد عنها أبداً. ويجب أن يركز ذهنه في تأمل الحزم والعزم وكيف أن الإرادة يجب أن تصمم بلا تردد أو تخاذل في سبيل تحقيق النرفانا. ويجب أن يتأمل كذلك في الرحمة والشفقة إذ يجب أن

يعطف كل عضو على هؤلاء البشر الذين يعيشون في حزن وألم وقلق من جراء تعلقهم بالأرض، فيحزن لحزنهم ويتألم لألمهم ويقلق لقلقهم، ومشاركة البشر في الحزن والألم والقلق يولد شفقة محبوبة تولد بدورها حباً أخوياً وصداقة لجميع الناس. وللعضو أن يتأمل في سعادة غيره من الناس ويشاركهم في هذه السعادة بأن يسعد لسعادتهم ويسر لأنهم يعيشون في سعادة خلصتهم من روابط الأرض وتعدهم للوصول الى النرفانا. وأخيراً يجب على كل عضو أن يركز ذهنه في تأمل حالة الهدوء والسكينة والاستقرار التي يتساوى فيها السرور والألم، وينعدم فيها التمييز بين الخير والشر أو العدل والظلم أو الشهرة والأفول أو الغنى والفقر أو الجمال والقبح أو الشباب والشيخوخة أو الصحة والمرض، ويدرب فكره تدريباً طويلاً مستمراً على اكتساب حالة الاستقرار التي هي أقرب الأحوال الى النرفانا أو باكتسابها يصل الى النرفانا.

ولا يمكن اكتساب الكمالات السابقة إلا إذا كان عند العضو رغبة قوية في التحلي بهذه الخصال الطيبة، إذ يمكن أن تدفعه الى أن يسلك السبيل السوي لاكتسابها، وأن تعد قلبه للأيمان بها إيماناً صادقاً نقياً، وأن تحث فكره على أن يدرسها دراسة فاحصة. وطالما يركز العضو ذهنه في هذه الخصال الحميدة ويقوى من إرادته لاكتسابها بالأعمال الطيبة فإنه ينتقل من حال إلى حال أرقى منها حتى يصل في النهاية الى حال الاستقرار. أما عن هذه الأحوال فهي:

١- حال الحيوية والنشاط وهو الذي يحث على العمل من أجل السير في طريق النرفانا.

٢- حال الوعي وهو الذي يوقظ في العضو وعى تعاليم بوذا وعياً شاملاً كاملاً.

٣- حال التأمل الذي يحض العضو على إمعان النظر في تعاليم بوذا.

٤- حال البحث وهو الذي يلزم العضو بالدقة في دراسة قانون بوذا دراسة عميقة مستفيضة.

٥- حال النشوة وهو السعادة المكتسبة من التحرر من الشهوات والرغبات.

٦- حال الاطمئنان الذي يتخلص فيه العضو من جميع ألوان الحزن والقلق والخوف مما يدعو الى صفاء الذهن صفاء تاماً لا يدفعه الى أي نوع من التفكير.

٧- حال الصبر الذي يحتفظ فيه العضو بنشوته من أجل تحرره التام من الأهواء، ويتمسك بما حققه من اطمئنان أدى الى صفاء الذهن وأنقذه من هواجس الألم.

٨- حال الاستقرار والهدوء الذي لا تتميز فيه القيم، ويصبح فيه العضو فوق الأفراح والأحزان بل فوق الحياة والموت، ويحقق النرفانا حال

السكينة المطلقة التي ينفصل فيها عن كل ما يربطه بالوجود من قيم، وبذلك يصل الى نهاية مطاف كل بوذي.

إن حياة أعضاء جماعة بوذا اليومية تؤكد لنا أن بوذا لا يعترف بالشعائر والطلاسم، ولا يقر بالكهانة وحياة المعابد. وإن حياتهم اليومية تشمل نوعين من الأعمال: أعمال مادية تنحصر في تنظيف الاستراحة وخدمة المرشدين واستجداء الطعام، وأعمال تأملية تنصرف الى التخلص من النقائص وكسب كمالات تقود الى النرفانا. كما أن حياة الأعضاء اليومية تشهد على أن بوذا لا يلزم أي عضو بقبول تعاليمه دون أن يتأكد من صدقها ويترك لهم مطلق الحرية الى أن يعيها كل منهم وعياً تاماً، ويتأملها تأملاً طويلاً عميقاً، ويفحصها فحصاً شاملاً حتى إذا ما آمن بها يسير في طريق النرفانا دون أي تعثر.

الفصل الثامن

أيام بوذا الأخيرة

عندما اقترب بوذا من سن الثمانين كان قد دب في جسمه الضعف والوهن ولا عجب في ذلك فلقد قام بما يربو عن أربع وأربعين رحلة بين القصيرة والطويلة متنقلاً من بلدة الى بلدة سيراً على الأقدام يدعو الناس الى تعاليمه، ويحثهم على الانضمام الى جماعته، وينشئ مراكز لاستراحة الأعضاء في كل مكان، ويضع النظم واللوائح التي تنظم حياة الأعضاء داخل الجماعة. ولم يكن جهاده سهلاً هيناً فلقد صادفته بعض المتاعب، وواجهته انقسامات أثارت الفتن والمنازعات، كان أعمق هذه الفتن أثراً في بوذا هي فتنة ديفاداتا التي كان سببها التنافس على رئاسة الجماعة، وأدت الى خروج بعض الأعضاء المتزمتين من جماعته، بينما هو في سن لا يمكنه أن يواجهها بقوة ويقضى عليها بحزم في الحال. وقد توالت عليه المصائب بعد ذلك إذ اغتيل أعز صديق له وهو الملك بمبسارا حاكم مملكة ما جادها وكان من أخلص المخلصين لبوذا وجماعته؛ وهاجم الملك فيرودها كحاكم مملكة كاش ولاية كابيلافاستى وأخذ يذبح في أمراء ساكيا من أبناء عمومته.

فكبر السن وطول الجهاد وكثرة المتاعب وتوالى المصائب جعلت بوذا يحس بقرب منيته، فحن الى موطنه، ورغب في الذهاب الى حيث أماكن

الطفولة والشباب، واشتاق لرؤية جبال الهيمالايا وقممها المغطاة بالثلوج. وكان في ذلك الوقت قد ذهب الى مدينة راجاجريها عاصمة ماجادها بعد أن مضى فصل المطر الرابع والأربعين في استراحة جيتا بمدينة شرافستى، وانتابه شعور بأن رحلته هذه ستكون آخر رحلة له، ولذلك عزم على أن يمر بأكبر عدد ممكن من المدن والقرى ليلقى على أعضاء الجماعة في كل منها دروساً في آخر صورة لتعاليمه. ولذلك طلب بوذا من مريده وأقرب المقربين اليه أناندا أن يدعو جميع الأخوان في راجاجريها للحضور في قاعة المحاضرات، وأخذ يلقى عليهم دروساً لخص فيها شتى تعاليمه، وأعطاهم فكرة شاملة عن جميع اتجاهات مذهبه.

وأخذ بوذا بعد ذلك ينتقل من بلدة الى بلدة في مملكة ماجادها داعياً جماعته لسماع محاضراته الجامعة الشاملة لشتى نواحي دينه. ومن تلك المدن أميالاتهيكا وبلدة نالاندا، وبلدة باتاليجاما التي تقع على الحدود بين مملكة ماجادها ومملكة فيجيان، وكانت المملكتان في حرب، وكان لكل منهما قوات تحرس الأسوار على الحدود، وكان ملك ماجادها آخذ في بناء حصون جديدة تعتبر نواة عاصمته الجديدة التي سميت فيما بعد باسم مدينة باتاليبوتا التي ليست إلا مدينة باتنا الحالية. ولما عرف وزراء ملك ماجادها بوجود بوذا على الحدود دعوه لتناول الطعام.

بعد ذلك عبر بوذا مع جماعته نهر الجنجز ساحة، وما أن وصل الى الضفة الأخرى حتى توجه الى بلدة كاتيجاما في مملكة فيجيان، وألقى هناك دروساً وافية شاملة لجميع المبادئ البوذية، ثم أخذ يتنقل بين بلدان مملكة

فيجيان خصوصاً بلدة ناديكا حيث أقام في بيت من الطوب، وألقى نفس الدروس الشاملة الجامعة على جماعة هذه البلدة.

ثم ذهب الى مدينة فيشالي عاصمة مملكة ليكشافيس، وأقام في غابة تملكها الغانية أمبابالى، وكانت على قسط وافر من الجمال، تجيد الرقص والغناء، ويتسابق العشاق على كسب ودها، وكانت لا تبخل عليهم بالحب ولا ترد ما يطلبونه من متعة. فلما علمت أمبابالى بنزول بوذ وجماعته في غابتها أسرعت اليه ودعته هو وجماعته لتناول الطعام. وبعد أن قبل بوذا دعوتها كان كبار رجال مدينة فيشالي يتسابقون اليه ليفوز كل منهم بشرف دعوة بوذا، إلا أنه اعتذر لهم جميعاً، وتعجبوا كيف يقبل بوذا دعوة غانية ويرفض دعوتهم. وبعد أن أكل بوذا وجماعته ألقى على أمبابالى دروساً في البوذية ونصائح وعظات دفعتها الى تغيير مجرى حياتها والايمان بتعاليمه وترك حياة المجون، ثم رجت بوذا أن يقبل منها غابة المانجو وما فيها من استراحة كهدية منها للجماعة فقبلها بوذا، ولم تكتف أمبابالى بذلك بل وهبت حياتها ومالها كذلك في سبيل بوذا وجماعته. وقبل أن يرحل بوذا الى بلدة بيلوفاجاما كا ألقى على جماعة فيشالي دروساً جامعة شاملة تربط تعاليمه في وحدة كاملة متناسقة.

وفي بلدة بيلوفاجاما كما أمضى بوذا آخر فصل للمطر بعد الاستنارة، وهي قرية صغيرة لا تكاد تكفي لإقامة جميع أفراد جماعته، ولذلك طلب منهم أن يتوزعوا على بيوت الأصدقاء والمعارف في مدينة فيشالي أو يسكنوا القرى المجاورة لتمضية فصل المطر. أما بوذا فبقي مع

أناندا في بيلوفاجاماكا ولقد أصيب بوذا في هذه البلدة بمرض كاد يؤدى بحياته حتى يأس أناندا من شفائه. ولكن بوذا شعر بأنه لم يمر بجميع مراكز الجماعة، وأن كثيراً من الأعضاء لم يستمعوا الى آخر دروسه الجامعة الشاملة وكذلك تذكر أن أناندا لم يصبح مرشداً بعد، وأنه مازال مريداً يطلب العلم، ولم يعين تعييناً نهائياً في سلك الجماعة، فتغلب على مرضه واستعاد صحته بقوة إرادته وأخذ ينبه أناندا الى أنه سواء أكان حياً أو ميتاً فإن ذلك لا يفيده في شيء إذ لا ييسر له بوذا تحقيق النرفانا أو يحول دون بلوغ الاستنارة؛ لأن الاستنارة لا يتوصل اليها الفرد إلا بجهوده الخاصة وبدافع من ذاته دون أن يستعين بمعلم أو ينتظر حافزاً خارجياً يدفعه اليها.

وكان بوذا يتوجه كل يوم مع أناندا الى مدينة فيشالي ليشحذا طعامهما، وبعد تناولهما هذا الطعام كثيراً ما كان بوذا يحدث أناندا عن المراحل التي يسير فيها المستنير بعد الموت حتى يبلغ النرفانا، وحدد مراحل النرفانا بأحوال ثمانية هي:

١- تبدأ المرحلة الأولى بحال الاحساس بالصور والأشكال.

٢- وينتقل منه الى حال فقدان الشعور بصورته الذاتية وشكله الخاص مع عدم الإحساس بالأشياء الخارجية.

٣- وفي الحال الثالث لا يدرك إلا المعاني الكلية للصور والأشياء.

٤- بعد ذلك ينتقل الى حال يتلاشى فيه الاحساس بكل ما هو جزئي وينعدم الإدراك بكل ما هو فردى، ويدرك فيه حقيقة المكان اللانهائي بأنه غير محدد بصورة أو معين بشكل.

٥- وينتقل في الحال الخامس الى حال يستولى عليه الشعور اللامتناهي وهو شعور غير مقيد بإحساس معين أو بإدراك خاص.

٦- ثم ينتقل الى حال اللا شيئية حيث لا يدرك أي شيء على الاطلاق.

٧- وفي الحال السابع ينعدم الاحساس بكل ما هو جزئي أو كلى على حد سواء، ويتلاشى الادراك بكل ما هو جزئي وكلى في وقت واحد.

٨- وأخيراً ينتقل الى حال يتساوى فيه الاحساس مع عدمه، ولا يتمايز الادراك عن عدمه وهو حال النرفانا.

وبعد انتهاء فصل المطر اتجه بوذا الى بلدة ماهافانا حيث توجد قاعة كوتاجارا وطلب من أناندا أن يدعو جميع الاخوان المنتشرين في فيشالي وما حولها من قرى للتوجه الى هذه القاعة. وبعد حضورهم ألقى عليهم بوذا مجملاً للقانون البوذى، وحثهم على التمسك بلوائح الجماعة والتعمق في تعاليم البوذية. ثم أخذ بوذا يتنقل بين مدن وقرى مملكة ليكشافيس، وألقى في كل منها دروساً وافية عن البوذية.

وبعد ذلك قصد بلاد مالان، وأقام في غابة مانجو بمدينة بافا. وعندما سمع تشندا صاحب هذا الغابة بقدوم بوذا الى غابته أسرع اليه ودعاه هو

وجماعته لتناول الطعام. وقدم لهم من بين ما قدم من طعام لحم خنزير وبعد الأكل عاود بوذا مرضه القديم وهو الدوزنتريا، فشكر تشندا على ضيافته وقام مسرعاً هو وجماعته، حتى لا يعرف تشندا بمرضه فيؤنب ذاته ظناً منه بأن طعامه سبب مرض بوذا، وضغط بوذا المريض المتعب على قواه واتجه نحو مدينة كوسنارا وهي تبعد حوالي ١٢٠ ميلا عن مدينة بنارس وتبعد من جهة الشرق بحوالي ٨٠ ميلا عن مدينة كابيلا فاستى. في أثناء السير اعترضه نهر كوكوشتا فاضطر أن يستريح بعض الوقت ثم سبح في النهر وعبره مع جماعته. ولكنه لم يكد يمشى مسافة قصيرة حتى شعر بوذا بشدة وطأة المرض عليه، فلم يقو على أن يواصل السير. فتوقف بوذا في غابة من أشجار السال، وطلب من أناندا أن يعد له فراشاً على أن تكون رأسه جهة الشمال وبين شجرتين توأمتين من أشجار السال. ثم نام على جنبه الأيمن، ووضع ساقاً على ساق، وغرق في بحر من التأمل.

وبعد قليل تنبه وأخذ يحدث أناندا عن تشندا، وطلب منه أن يدافع عنه إذا ما لامه أحد على ما قدمه لبوذا من طعام به لحم خنزير، وأن يعلن للجميع بأن أفضل الأطعمة التي قدمت له هو الطعام الذي قدمته له السيدة سوجاتا قبيل الاستنارة وهو تحت شجرة التين، والطعام الذي قدمه له تشندا قبيل وفاته، كما حدث بوذا أناندا عما يجب عمله بعد موته وعن كيفية دفنه.

وبعد أن انتهى بوذا من حديثه انسحب أناندا بعيداً، وأخذ يبكي، فلاحظ بوذا غياب أناندا، فسأل عنه، فقيل له إنه تسرب بعيداً وأخذ

يبكي فطلب من أحد الاخوان أن يستدعيه، فلما حضر طلب منه بوذا أن يكف عن البكاء، وشكره على اخلاصه ووفائه، وأخبره بأنه لا يوجد انسان لا يموت ويتحلل ويبلى، فهذه سنة الحياة ولن يفر أحد من الموت، فلا حاجة للحزن والبكاء.

ولقد ضايق أناندا أن يموت بوذا العظيم في قرية صغيرة مجهولة، سورها من طين، وأرضها برية لا تزرع، فرجا بوذا أن يذهب الى إحدى المدن الكبرى حيث يوجد عدد كبير من البرهمة والكشاثريا والأثرياء والمخلصين لبوذا، ويشرفهم أن يحيطوا جثمان بوذا بالاحترام اللائق به، ويكرموه في رحيله من الحياة أحسن إكرام. ولكن بوذا منع أناندا من الاستمرار في مثل هذا الكلام، وطلب منه أن يذهب الى أهالي كوسنارا ويخبرهم بقرب منية بوذا. فذهب أناندا الى كوسنارا، ووجد أهاليها– وهم من قبيلة مالان– يقدون اجتماعاً في قاعة الشورى ويناقشون بعض الأمور التجارية التي تخصهم؛ فأعلن في هذا الاجتماع بأن هذه الليلة هي آخر ليلة في حياة بوذا، وأنه يحتضر الآن، فحزن الأهالي حزناً شديدا؛ وسرعان ما انتشر الخبر في البلدة، وأخذت النساء تولولن وتندبن.

ولما بلغ سمع الزاهد المتجول سودهارا خبر احتضار بوذا أسرع في الذهاب اليه؛ إذ كان يشك في التعاليم الدينية المنتشرة في البلاد، وأراد أن يناقش بوذا في بعض المسائل الدينية لعله يصل الى اليقين على يديه. وطلب من أناندا أن يقابل بوذا، ولكنه رفض لأنه لم يرد أن يزعج بوذا في ساعاته الأخيرة. ولكن بوذا سمع نقاشهما فطلب من أناندا أن يسمح

لسودهارا بمقابلته. ولما أخبر سودهارا بوذا بعدم ثقته في رجال الدين في ذلك الوقت أخذ بوذا يوضح له أسس دينه فآمن بها وطلب من بوذا أن يدخل في الجماعة فقبل وعينه في الجماعة؛ فكان سودهارا آخر طالب دخل الجماعة على يد بوذا.

وقبل أن يلفظ بوذا أنفاسه الأخيرة طلب من أناندا ومن جميع الأعضاء الحاضرين أن يتخذوا من القانون مرشداً لهم، وعليهم جميعاً أن يعملوا من أجل إذاعته ونشره في كل مكان. ثم تساءل إذا ما كان هناك عضو يشك في أي شيء من تعاليمه أو يريد أن يستفسر عن شيء غمض عليه. وبعد ذلك قال آخر كلماته "إن الغناء رايض في كل شيء يولد لا يشذ عن ذلك أحد، وعلى الجميع أن يبذلوا الجهد في سبيل الخلاص النهائي"، ثم مات.

وسرعان ما ذاع خبر الوفاة، وجاءت النساء وأحطن جثمان بوذا وأخذن يولولن ويندبن. أما الأعضاء الذين لم يقهروا بعد شهواتهم أو يقضوا على ثرواتهم انتابتهم نوبات من البكاء والنحيب والنواح، فضلاً عن أنهم كان يمدون أيديهم الى الأمام ثم ينبطحون أرضاً ويحركون أجسامهم الى الأمام والخلف. بينما الأعضاء الذين قهروا شهواتهم وتغلبوا على نزواتهم لم يفقدهم الحزن السيطرة على انفعالاتهم ولم يخرجهم الأسى عن جادة الصواب. وأنشد أناندا قائلاً "يا لهول ما حدث، لقد مات المستنير الذي هو أفضل الجميع في كل شيء"، وقال أثورودها "لقد خرج النفس الأخير من الذهن الثابت الهادئ، وخمد فكره كما تخمد النار المنيرة"، ثم طلب

أنورودها من الأعضاء أن يكفوا عن البكاء وذكرهم آخر أقوال بوذا في فناء سائر الأفراد إلا أن الأعضاء لم ينقطوا عن النحيب طوال الليل، واستمر كل من أناندا وأنورودها يخففان عنهم شدة وطأة الحزن ويطلبان منهم التوقف عن النواح.

ولما ذهب أناندا ليبلغ قادة مالان نبأ موت بوذا أسرع أهالي كوسنارا في صنع الكفن وأكاليل الزهور وفي احضار الطيب والعطر، ثم توجهوا الى غابة السال واخذوا يرتلون الأناشيد ويعزفون الموسيقى ويرقصون، واستمروا على هذا المنوال سبعة أيام بلياليها. وما أن أتى اليوم السابع حتى اغتسل ثمانية من الرجال وارتدوا ملابس نظيفة طاهرة، ثم حملوا جثمان بوذا وطافوا به في طرق كوسنارا حتى وصلوا الى ضريح مالان. وهناك وضعوا جثمان بوذا في تابوت حديدي به زيت بعد أن لفوه بطبقات من القماش والقطن، ثم غطوه بقماش طاهر، ونقلوا التابوت حيث أقاموا محرقة من خشب الأشجار ذات الرائحة الطيبة. وحاول البعض إشعال الخشب لحرق جثمان بوذا إلا أنهم فشلوا في إشعال النار. في ذلك الوقت وصل كاشيابا– إذ لم يكن حاضراً وقت ان مات بوذا– على رأس جماعة عددها حوالي خمسمائة عضواً، وأخذ يدور هو وجماعته حول المحرقة ثلاث مرات ويلقى قطعاً من خشب شجر النخيل، ثم كشف عن قدمي بوذا وألصق جبهته بها إجلالاً وإكراماً لبوذا، وبينما يحيي بقية الأعضاء بوذا بلصق الجباه بقدميه اشتعلت المحرقة، وسرعان ما تم احتراق جثمان بوذا حتى لم يبق منه إلا الرماد.

وبعد أن خبت النار أقام أهالي كوسنارا سوراً من السيوف والسهام حول رماد جثمان بوذا. وظلوا يكرمون هذا الرماد سبعة أيام أخرى بالأناشيد والموسيقى والرقص، ويلقون عليها العطر والأزهار.

وكان في نية أهالي كوسنارا أن يحتفظوا برماد جثمان بوذا في بلدتهم، ويقيموا ضريحاً خاصاً لبوذا. ولكن لما سمعت المدن التي تنتشر فيها البوذية بخبر موت بوذا أسرعت بإرسال مندوبيها مطالبة بنصيبها في رماد جثمان بوذا حتى يمكنها إقامة أضرحة لبوذا في أراضيها. ومنعاً للشقاق أشار العضو دونا بأن يوزع رماد جثمان بوذا على البلدان الثمانية التي طالبت بحقها في أخذ هذا الرماد. ولقد رضى قادة هذه البلاد بهذا التقسيم فوزع رماد جثمان بوذا على كوسنارا وماجادها وفيشالي وكابيلافاستى واللا كابا وراما جاما وبافا وفيتهاديا. وبعد هذا التوزيع طالب العضو دونا بطاسة بوذا فأعطيت له، ثم جاء بعد ذلك مندوب قبائل موررياس وطالب بنصيب بلاده في رماد جثمان بوذا ولم يكن هناك إلا بقايا من الحطب الذي احترق فيه جثمان بوذا فأعطى له.

ولقد أقامت كل بلدة من البلاد الثمانية ضريحاً خاصاً دفنت نصيبها في رماد جثمان بوذا، وشيد العضو دونا ضريحاً تاسعاً لطاسة بوذا، بينما بنى أهالي موررياس ضريحاً عاشراً لبقايا الحطب الذي احترق فيه جثمان بوذا. إلا أنه يقال– وأحسب أن هذا القول صحيح– إن كاشيابا اعترض على دونا ورفض فكره توزيع رماد جثمان بوذا وإقامة أضرحة متعددة لهذا الرماد؛ لأن تعاليم بوذا تناهض إقامة الأضرحة وزيارتها، وكذلك خوفاً من

أن ينظر الناس الى بوذا على أنه إله ثم يعبده أتباعه بعد ذلك، بينما بوذا لم يؤمن بالآلهة ولم يأمر بعبادتها. ولذلك عمل كاشيابا على استرداد رماد جثمان بوذا ثم دفنه في كهف في جنوب شرق راجاجريها.

وهكذا مات بوذا بعد جهاد طويل شاق دام ما يقرب من نصف قرن أحدث ثورة دينية قلبت الأوضاع الدينية المألوفة، وحاربت نظام الطوائف وسحبت من البراهمة والكهنة ورجال الدين ما كانوا يتمتعون به من حظوة عند الشعب ومن نفوذ وسطوة عليه. لقد نادى بوذا بمساواة جميع الأفراد، وأن لا فرق بين برهمى وسودرى إلا بجهاده في سبيل تحقيق النرفانا وأن تحقيق النرفانا لا يتوصل إليه الفرد إلا بجهده الذاتي ولا ينتظر من أحد عوناً لأن ذلك لا يفيده في شيء وأن الجميع أحرار ليس عليهم من سلطان غير القانون البوذي بل لهم الحق في التحلل منه إذا ما شكوا فيه وأحسوا أنه لا يحقق هدفهم، وعندئذ لهم مطلق الحرية في الانفصال عن الجماعة.

ولقد ظل بوذا الى آخر أيام حياته يطوف بمراكز الجماعة يدعو الى تعاليمه ويناقش كل معترض ويزيل الشك من قلب كل مرتاب ويحث على التمسك بالقانون ويدفع إلى نشره في كل مكان. ولم يقصر بوذا في أن يعين طالباً في الجماعة وهو في ساعاته الأخيرة، ولم يكف عن النصح والارشاد حتى قبل أن يلفظ النفس الأخير.

وهكذا ظل بوذا مخلصاً لتعاليمه ثابتاً على دعوته حتى الرمق الأخير.

الفصل التاسع

الجماعة بعد موت بوذا

لم يكن بوذا يؤمن بنظام الكهانة بل حارب الكهانة طوال حياته، ولم ينشئ مراتب ودرجات لأعضاء الجماعة بل نظر إليهم جميعاً على أنهم أخوة متساوون في كل شيء ولا يحق لأحد أن يفخر على آخر بأي شيء حتى ولو كان متفوقاً في الروحية، وإن الطالب والمريد والمرشد لا يمتاز أحد منهم على الآخر إلا بالأقدمية في سلك البوذية، وإن رائد الجميع ومرشدهم هو قانون بوذا. ولذلك لم يكن بوذا في حاجة لأن يرشح من يتولى بعده زعامة الجماعة بل إن الجماعة بعد موته لم تشعر بحاجة للاجتماع لانتخاب من يحل محل بوذا لأنهم يعرفون القانون البوذي وهو ملاذ الجميع يلجئون إليه كلما صادفهم أي إشكال.

ولكن أقوال العضو المسن سوبهادا– الذي عين في الجماعة بعد أن تقدم في السن– عند موت بوذا دفعت الأعضاء الى التفكير الجدي في عقد اجتماع لمراجعة تعاليم بوذا والاتفاق على صورتها الأخيرة. لقد لام سوبهادا الأعضاء الذين أخذوا يبكون حزناً عن موت بوذا وطلب منهم عدم الاستمرار في البكاء وأخبرهم بأن موت بوذا يدعو الى الفرح لا الى الحزن وكان يجب أن يسعدهم لأنه خلصهم من صرامة تعليماته، فلقد كان يفرض عليهم سلوكاً خاصاً ويلزمهم باتباعه ويقيدهم بقانونه ويضيق عليهم

من حين لآخر بأقواله "إن هذا الفعل يليق بالأخ، وهذا الفعل لا يليق به" أما الآن بعد موت بوذا فلا يوجد من يأمر وأن الجميع أحرار ليس عليهم من سلطان لهم أن يفعلوا ما يشاءون دون رقيب أو حسيب.

وسرعان ما انتشرت أقوال سوبهادا بين الأعضاء وتناقلتها الألسن حتى وصلت الى علم كاشيابا وهو في طريقه الى كوسنارا ليشترك في جنازة بوذا. ولذلك دعا كاشيابا الى عقد اجتماع عام بعد الانتهاء من أداء الشعائر الجنائزية ولقد وجد كاشيابا استجابة من الجميع لعقد هذا الاجتماع لأنهم كانوا يحرصون على حفظ تعاليم بوذا من البدع ومن ادعاءات أمثال سوبهادا الذين لا يتورعون عن تحريف تعاليم بوذا وتبديلها أو إضافة ما هو غريب عنها، كما خاف الأعضاء أن تثير أقوال سوبهادا الذيع في قلوب من لم يتوطد إيمانه بتعاليم بوذا فيرتدون عن البوذية.

وتولى كاشيابا رئاسة هذا الاجتماع إذ فضلا عن أنه سار شوطاً عظيماً في طريق النرفانا فإنه أقدم الأعضاء في الجماعة لأنه كان من أوائل الزعماء الدينيين الذين اعتنقوا تعاليم بوذا. وكان يوجد في ذلك الوقت حشد كبير من الأعضاء منهم الطالب الذي لم يعين بعد، ومنهم المريد الذي لم يتثبت من تعاليم بوذا ولا يجيد حفظ نصوصها، ومنهم المرشد الذي له أقدمية في سلك الجماعة وعلى علم تام بأسرار تعاليم بوذا، وحافظ في صدره لقسط وافر منها. فطلب أغلبية الأعضاء من كاشيابا أن يختار من بينهم خمسمائة مرشداً لهم أقدمية في الجماعة مكنتهم من معرفة أقوال بوذا في أصول طريق الخلاص وفي قواعد سلوك الأعضاء. فأخذ

كاشيابا في اختيار هؤلاء المرشدين الى أن تبقى عضو واحد، ولم يجد كاشيابا عضواً له أقدمية تسمح له بالاشتراك في هذا الاجتماع الخطير. فأشار عليه البعض باختيار أناندا تلميذ بوذا المفضل الذى زامله مزاملة قريبة مدة طويلة، وسمع منه معظم تعاليمه، وكثيراً ما كان يناقشه فيها حتى ألم بها إلماماً تاماً وإن كان مازال طالباً ولم يعين في الجماعة. فوافق كاشيابا على اختيار أناندا لأنه يعرف تعلق بوذا بملازمته وثناءه الدائم له على حسن سلوكه، فهو بذلك لا يقل عن بقية المرشدين الذين اختارهم.

وقرر المرشدون الاجتماع في غار في تل قريب من راجاجريها أعده لهم الملك أجاتا شاتو حاكم ماجادها. كما اتفق المرشدون فيما بينهم على أن لا يسمح لأحد غيرهم بدخول هذا الغار لتمضية فصل المطر. قبل تلاوة أقوال بوذا للتصديق عليها أشار البعض الى أن بوذا كثيراً ما كان ينصح بضرورة اصلاح الاستراحة قبل تمضية فصل المطر فيها، فأخذوا في إزالة ما في الغار من خرائب ثم شرعوا في ترميم ما قد هدم واصلاح ما قد كسر وحطم وإعداد الغار للسكنى، واستمر هذا العمل شهراً كاملاً.

وفي الشهر الذي يليه استعد الأعضاء لتلاوة أقوال بوذا لإعلان أقوال بوذا الصحيحة في صورة رسمية بعد موافقة جميع المرشدين. وقبل البدء في هذه التلاوة اتفق الأعضاء على تقسيم أقوال بوذا الى قسمين:

القسم الأول ويسمى "سوتا بيتاكا" وهو قسم نظري يتضمن مبادئ العقيدة البوذية ومذاهبها في الخلاص.

أما القسم الثاني فيسمى "فينايا بيتاكا" وهو قسم عملي يشمل شروط سلوك العضو داخل الجماعة وقواعد المجاهدة التي تحقق النرفانا.

اقترح كاشيابا بعد ذلك بأن يبدأ أوبالى بتلاوة فينايا بيتاكا لأنه يفوق جميع الحاضرين حفظاً لها، ثم يتلو أناندا سوتا بيتاكا لأن صلته الوثيقة ببوذا جعلته أكثر الأعضاء معرفة لها. ولما وافق الجميع على هذا الاقتراح أخذ أوبالى يتلو فينايا بيتاكا، ولكن كاشيابا رأى أن يطلب من أوبالى أن يتلو قسماً من فينايا بيتاكا ثم يسأله عن الظروف والمناسبات التي دعت بوذا الى أن يقولها، وعن كيفية تطور كل تشريع وضعه بوذا، وعن النتائج التي أدت اليها.

ولقد أخذ أوبالى في تلاوة قائمة الآثام وعقوباتها، وشروط قبول العضو في الجماعة، وطرق تعيينه وتعليمه وإرشاده، وأصول عقد الاجتماعات ومواعيدها وأهمية تلاوة قائمة الآثام في اجتماعات خاصة، وأنواع المأكل والملبس والمسكن والأثاث، وأساليب معالجة المرضى وتقديم الدواء اللازم لهم الى أن تلا جميع أقسام فينايا بيتاكا.

وبعد أن انتهى كاشيابا من سؤال أوبالى في جميع ما تلاه من أقسام فينايا بيتاكا وأجاب عليه الاجابة الصحيحة وصدق الجميع على صدق الأسئلة وصواب الأجوبة، أخذ كاشيابا في سؤال أناندا في كل ما يتلوه من سوتا بيتاكا بنفس الطريقة التي سأل بيها أوبالى. وتلا أناندا جميع أسام القانون البوذي من أصول ومبادئ ونظريات؛ ثم قص مراحل حياة بوذا

منذ أن ولد الى أن مات، وعرض جهاده الروحي ونجاحه في الوصول الى النرفانا، وذكر كثيراً من القصص التي تتناول حيوات بوذا في شتى العصور السابقة وقال قصصاً أخرى كثيرة حكاها بوذا للوعظ والارشاد والحث على الايمان بتعاليمه.

ولما انتهى كاشيابا من استعراض سوتا بيتاكا مع أناندا وصدق الجميع على أقوالها أحسب أنه لم يعجب بعض الأعضاء أن ينال أناندا شرف تلاوة سوتا بيتاكا بينما هو مازال طالباً لم يعين بعد في الجماعة، فدفعهم الحسد الى إثارة بعض المشكلات حول بعض تصرفات أناندا، وأخذوا يرمونه بالتقصير وينسبون اليه هنات اعتبروها تفريطاً خطيراً في حق الجماعة وتصل الى حد الإثم. ولقد بلغت آثام أناندا في عرفهم خمسة آثام وهي:

أولاً: بعد أن تلا أناندا سوتا بيتاكا صرح بأن بوذا أخبره بأن هناك نوعين من قواعد السلوك: أحدهما أساسي وهو نوع لا يمكن تعديله أو احداث أي تغيير فيه، ونوع آخر ثانوي يمكن تعديله حسب الظروف والمناسبات. ولكن لما سئل إذا ما استفسر من بوذا عن ماهية القواعد الأساسية التي لا تقبل التعديل، وعن نمط القواعد الثانوية التي يمكن تعديلها اعتذر بأنه سها عليه أن يسأل بوذا في هذا الأمر، وأضطر تحت ضغط الاتهام أن يعترف بأنه ارتكب خطأ بهذا السهو.

ولقد تدخل كاشيابا في هذا الجدال، ونبه الأعضاء الى أنه لا يمكن أن يقرر أحد بأنه يمكن إجراء أي تعديل في أي قاعدة من قواعد السلوك،

لأنه لا يوجد أحد يستطيع أن يميز بين ما هو أساسي منها وما هي غير أساسي. ولذلك لا يجوز السماح بإجراء أي تعديل في أ قاعدة من قواعد السلوك حتى لا يجرؤ المذبذبون والدخلاء على الجماعة على تحريف قواعد السلوك التي وضعها بوذا زاعمين أن بوذا أمر بذلك، وحتى لا يظن عامة الناس بأن أعضاء الجماعة انتهزوا فرصة موت بوذا وأخذوا يعدلون ويبدلون في قواعد السلوك حسب هواهم، ويخففون من شدتها للتحلل منها كما حاول سوبهادا تعديلها للتحلل من قسوتها، وذلك يسئ الى الجماعة، ويدعو عامة الناس الى أن يظنوا بها الظنون فينصرفون عنها مما يعرض مستقبل الجماعة للضياع.

ثانياً: بعد أن نجح الحساد في إثارة هذه المشكلة، وأشعروا الجميع بإهمال أناندا لم تعترضهم صعوبة عند مواجهته ببقية أخطائه التي ارتكبها أثناء حياة بوذا، فإذا بأحدهم يلومه لأنه خاط لبوذا ثوباً للمطر بعد أن داس على قماشه بقدميه دون أن يراه.

ثالثاً: وأنبه آخر لأنه أول من أدخل على جثمان بوذا أدخل النساء ثم الرجال، ولقد تجمعت النساء حول جثمان بوذا الطاهر وأخذن في البكاء والنحيب حتى لوثت دموعهن الجثمان الطاهر.

رابعاً: كما أخذ عليه أنه جانب الصواب حينما لم يطلب من بوذا أن يعيش دورة كاملة حتى يستمر في نشر دعوته أطول مدة ممكنة ويسعد أكبر عدد من البشر.

خامساً: ولم ينس البعض بأن يذكره بخطئه الجسيم الذي ارتكبه عندما ألح على بوذا بقبول النساء في سلك الجماعة. ولقد سبب ذلك كثيراً من المضايقات لبوذا فيما بعد وعرض الجماعة لمشاكل لم يكن هناك حاجة اليها.

ولم ينكر أناندا أنه أتى هذه الأفعال، إلا أنه قرر بأنه أتاها عن حسن نية أو سهوا عنه ولم يقصد بها الا الخير. وما دار من نقاش حول أخطاء أناندا يوحى بأنه كان هناك ضرب من الاختلاف بين رؤساء هذا الاجتماع وأنه قصد من تخطئ أناندا في بعض أفعال إنقاص قدره، خصوصاً وأن بوذا اصطفاه في أواخر حياته ولم يزامل أحد سواه، كما أن أعضاء المجلس طلبوا من كاشيابا أن يختاره عضواً في هذا الاجتماع، وإن لم يختاره كاشايابا من تلقاء ذاته فلأنه لم يكن قد عين تعييناً نهائياً ولم يصبح مرشداً. ولكن نظراً لأن بوذا كثيراً ما صرح بتفوق أناندا في معرفة تعاليم بوذا وأمتدح قبل سلوكه وسيره الحثيث في طريق النرفانا، فلم يعترض أحد على أن يكون أناندا عضواً عاملاً في هذا الاجتماع التاريخي.

وكان من الممكن أن يؤدى النقاش حول أخطاء أناندا الى نوع من الشقاق بين الأعضاء. ولكن رجاحة عقل أناندا وبعدة نظره جعله يعترف بأن هذه الأفعال أخطاء وإن كان في قرارة ذاته شعر بأنها ليست أخطاء تستحق كل هذا النقاش. وكان غرض أناندا من هذا الاعتراف هو حرصه على تماسك الجماعة واتحاد أفرادها وخوفه من أن يصيب الجماعة ضرباً من الخلاف يقسمها الى شيع وأحزاب، ولقد كان أشد ما يكره بوذا أن

يسمع عن خلاف بين عضو وآخر، فكيف يرضى أناندا أن يكون سبباً في خلاف خطير بينما لم يمض على موت بوذا إلا شهران...؟

ولقد ظلت جماعة بوذا بعد هذا الاجتماع سنين طوال تسير على هدى تعاليم بوذا متمسكة بكل ما نادى به من مبادئ وأصول وقواعد، ويحرص في الدفاع عنها تلاميذه المخلصون الذين حملوا لواء البوذية من بعده. إلا أن حياة البوذيين في أحضان مجتمع يعتنق غالبيته الديانات الفيدية والبراهمانية دعا الى تسرب بعض تعاليم الفيدا والبرهماناس واليوبانيشاد الى البوذية بالرغم من حرص تلاميذ بوذا في مقاومة تأثر البوذية بغيرها من الديانات الهندسية، وكان من جراء هذا الحرص على نقاوة البوذية كثيراً ما كان يدخل أعضاء الجماعة البوذية في نقاش وجدال حوالي تعاليم بوذا الأصلية.

وبعد مضى حوالي قرن من الزمان أو أكثر قليلاً على الاجتماع الأول حدث في عهد الملك كالا شوكا أن لاحظ ياسا– وكان في ذلك الوقت شيخاً معمراً بلغ سنه حوالي ١٦٥ عاما– أن أفراد جماعة فيشالي من قبيلة فاجيان قد خرجوا على نظم بوذا في عشر نقاط. ولقد عرف ذلك حينما كان شحذ طعامه ذات مرة كعادته في مدينة فيشالي فشاهد أن جماعة فيشالي من قبيلة فاجيان يمسكون طاسات برنزية مملوءة بالماء يجمعون فيها صدقات من قطع من النقود الفضية والذهبية، فنبه ياسا الأهالي بأنه لا يجوز لأبناء بوذا أن بقلوا فضة أو ذهباً، فلم يكترث أعضاء فيشالي لأقوال ياسا، واستمروا في جمع الصدقات الفضية والذهبية. وبعد

ذلك قسموا ما جمعوه من نقود فيما بينهم، وقدموا لياسا قسطاً منها. لما رفضها اتهموه بأنه تطاول على أهالي فيشالي وضايقهم مضايقة شديدة تتطلب منه أن يكفر عن إثمه بأن يعتذر لهم عن منعهم من تقديم الصدقات الى أعضاء الجماعة.

ولكن ياسا لم يعتذر لهم، إنما يبين لهم– وهو العليم بكل ما صدر عن بوذا من أقوال وأفعال– أن بوذا يحرم تحريماً باتاً امتلاك البوذي الذهب والفضة، وأيد كلامه بذكر كثير من أقوال بوذا في هذا الصدد، ويذكر كثير من الحوادث التي عرضت على بوذا وخطأ فيها من أخذ ذهباً أو فضة. ولقد أقنع دفاعه الحار المدعم بالأسانيد أهالي فيشالي مما دعاهم الى التصريح بأن ياسا هو الزاهد البوذي الحق، أما غيره فهم أدعياء لا يعرفون عن تعاليم بوذا شيئاً. فلما بلغ ذلك جماعة فيشالي من قبيلة فاجيان قرروا المطالبة بإيقافه لأنه حرض أهالي فيشالي ضدهم، وحط من شأنهم أمامهم.

ولكن ياسا لم ينتظر حتى يعقدوا اجتماعا لإيقافه، إنما اتجه نحو مملكة كوشامى وأتصل بأفراد جماعة مدينة بافا وكان عددهم حوالي ستين عضواً كما اتصل بأعضاء المنطقة الجنوبية من مدينة أفانتى وكان عددهم ٨٨ عضواً، وعرض عليهم خلافاته مع جماعة فيشالي، وهي لا تنحصر فقط في تحريم جمع الفضة والذهب أو إباحة أخذها وإنما هناك تسع مخالفات أخرى غيرها، وطالب بعقد اجتماع خاص لبحث هذه المخالفات فوافقوا على عقد هذا الاجتماع.

ثم توجه ياسا بعد ذلك الى "ساميهوتا" وهو من الأعضاء الذين عاصروا بوذا، وكان يقيم في كهف في سفح جبل، ولما سمع من ياسا بقصة جماعة فيشالي كان رأيه من رأى ياسا، وقبل أن يحضر الاجتماع ويكون في صف ياسا.

وأدرك ياسا ضرورة حضور "رفاتا" لهذا الاجتماع لأنه مطلع على كل ما في سوتا بيتاكا وفي فينايا بيتاكا، ويسير على هدى بوذا، ويسلك طريقه بكل حزم وإخلاص، فضلاً عن أنه عاصر بوذا مثل ياسا وعرف الكثير عن أفعاله واستمع الى دروسه ومحاضراته؛ ولذلك توجه ياسا الى بلدة سوريا حيث يعتكف رفاتا ليطلب منه أن يحضر الاجتماع ليكون حكما في أمر الخلاف الذي بينه وبين أعضاء فيشالي. ويبدو أن رفاتا كان قد بلغه أمر هذا الخلاف وأحس بأن ياسا لابد أن يقصده ليحكم بينهم، بينما هو زاهد محب للخلوة والوحدة ولا يميل للتدخل في مثل هذا الخلاف؛ فغادر بلدة سوريا قبل أن يصلها ياسا. وعرف ياسا أنه اتجه الى بلدة سامكاسا ولكن ما أن وصل اليها حتى سمع أنه انتقل الى بلدة كاناكوجا. واستمر ياسا ينتقل من بلدة الى أخرى وراء رفاتا حتى التقى به في بلدة ساهاجاتى. وهناك عرض عليه ياسا أمر الخلافات التي بينه وبين جماعة فيشالي وطلب منه أن يبدى رأيه فيها، فاتفق مع ياسا على أنه محق فيما ذهى إليه من رأى وأن جماعة فيشالي أخطأت، إلا أنه لم يكن متحمساً للاشتراك في اجتماع عام لمناقشة مثل هذه المسائل.

ولم يقف أعضاء جماعة فيشالي مكتوفي الأيدي تاركين ياسا يجمع المؤيدين من شرق فيشالي وغربها ويكسب في صفه الأحياء من مريدى بوذا أو الذين شاهدوه واستمعوا اليه أو كل ضليع في الفكر البوذي ومتمكن في قانون بوذا وشريعته؛ فأخذت جماعة فيشالي في جذب المؤيدين الى جانبهم فانتهزوا فرصة تردد رفاتا في تأييد ياسا تأييداً علنياً، فتوجهوا اليه وقدموا اليه هدايا من طاسات وأردية وحصائر وعلب حفظ إبر الخياطة أحزمة وأواني لتصفية المياه، إلا أن رفاتا رفضها كلها لأنه لا يحتاج اليها ولا ينقصه شيء ويكفيه ما عنده من حاجيات ضرورية. فلما لم تلن لهم قناة رفاتا ولم يبد أي ميل للانضمام اليهم قصدوا مريده "أوتتارا" وكان أوتتارا صغيرا السن لم يزد عمره عن العشرين عاما فحاولوا إقناعه بأن يتوسط لهم عند مرشده ليؤيدهم ضد ياسا، وعرضوا عليه نفس الهدايا التي لم يقبلها رفاتا إلا أنه رفضها أول الأمر مثل مرشده، ولكن لما أخبروه بأن بوذا نفسه كان يقبل الهدايا واذا حدث أن رفضها فإن مريده أناندا كان يأخذها فقبل أوتتارا بعد إلحاح شديد رداء واحداً، ثم طلبوا منه ان يذهب الى مرشده رفاتا ويرجوه ان يحضر الاجتماع ويقف في صف جماعة فيشالي ويعلن امام الجميع انهم أدق علماً وأصدق فهماً لتعاليم بوذا من ياسا وانهم لم يخرجوا على شريعة بوذا أو يعارضوا قانونه بتمسكهم بالعشر نقاط التي يناهضها ياسا.

وما أن ذهب أوتتارا الى رفاتا وطلب منه تأييد جماعة فيشالي حتى طرده رفاتا لأنه أحس بأن جماعة فيشالي قد غررت به فأخذ يحرضه على عمل يخالف شريعة بوذا. ولذلك صمم رفاتا على ألا يقف موقفا سلبيا

وعزم على أن يعاون ياسا ضدهم بطريقة عملية حتى يوقفهم عند حدهم ولا يتمادوا في الإثم أو يستمروا في إدعاءاتهم الكاذبة. فذهب رفاتا بدوره الى "سابا كامين" وهو عضو من الذين عاصروا بوذا ولهم إلمام واسع بقانونه وشريعته وهكذا أخذ رفاتا ينتقل بين شرق فيشالي وغربها يجمع مع ياسا المؤيدين حتى التف حولهما ما يقرب من ١٢ ألف عضو من الموافقين على وجهة نظرهما.

ولقد قرر الجميع عقد اجتماع عام في غابة فاليكا في مدينة فيشالي، ونظراً لكثرة المؤيدين اختار رفاتا من بينهم سبعمائة عضوا حسب أقدميتهم في سلك البوذية وتبعاً لسعة اطلاعهم على أصول تعاليم بوذا ومعرفتهم لقواعد السلوك عنده. ولما بدأ الاجتماع لاحظ رفاتا أن المناقشات تدور بين عدد كبير من الأعضاء بلا هدف وأن جدالهم لا يرمى الى شيء وبغير طائل، فاقترح على المجتمعين أن يختار أعضاء المجلس من بينهم ثمانية أعضاء لمناقشة هذه الاختلافات. فاختارت جماعة شرق فيشالي أربعة من الأعضاء وكانوا جميعاً من الذين عاصروا بوذا أو من مريدى أناندا وهم: سابا كامين وسالها وشوحا سوبهيتا وفاسابها جاميكا. واختارت جماعة بافا من غرب فيشالي أربعة أعضاء وهم كذلك من مريدى بوذا أو من الذين عاصروه أو من مريدى أناندا وهم: ياسا ورفاتا وساميهوتا وسومانا. ولما وافق جميع الحاضرين على اختيار هؤلاء الأعضاء الثمانية طلبوا منهم تشكيل مجلس تؤخذ فيه أصواتهم على كل مسألة.

ترك الأعضاء الثمانية بقية الأعضاء وذهبوا الى داخل استراحة فاليكا حيث الهدوء والسكينة بعيدين عن كل ضجة وضوضاء. وفتح رفاتا الاجتماع باقتراح هو أن يسأل سابا كامين عن النقاط العشر محور الاختلاف، ولما وافق سابا كامين على أن يجيب على كل ما يسأل فيه وافق بقية الأعضاء على اختياره.

ولقد بادره رفاتا بالسؤال الأول وهو إذا ما كان مسموحاً لأعضاء الجماعة أن يحفظوا الملح في إناء من دون بقية المأكولات. فأجاب سابا كامين بأن بوذا عارض ذلك في مدينة سافاتهى وأكد أن من يحفظ أي مأكولات أو ملح في إناء فهو آثم، لأنه يأكل طعاماً مخزوناً، وليس على العضو أن يستبقى عنده طعاماً على الاطلاق، إذ يجب عليه أن يشحذ قوت يوم بيوم، ولا يجمع أكثر مما يحتاج اليه في وجبته اليومية، فحفظ الملح في إناء فيه خروج على الشريعة التي وضعها بوذا للجماعة.

ثم سأله رفاتا السؤال الثاني وهو إذا ما كان مسموحاً للعضو أن يتناول وجبته اليومية عندما يكون عرض ظل الشمس حوالي إصبعين أي بعد الظهيرة بمدة قصيرة. فأجاب سابا كامين بأن بوذا منع تناول الوجبة اليومية بعد الظهيرة مباشرة، واشترط أن تكون قبل وقت الظهيرة، ولقد صرح بوذا وهو في راجاجريها بأن من يتناول بعد الظهيرة غير السوائل يكون آثماً.

وعندما طلب رفاتا إيضاحاً للأشكال الثالث الخاص بجواز تناول أكثر من وجبة في اليوم أجاب ساباكامين بأنه لا يجوز إطلاقاً تناول أكثر

من وجبة في اليوم، إذ لا يجب أن يصرف العضو وقته في جمع الطعام وأكله، وأن وجبة واحدة تكفي الزاهد، وأن الشره في الأكل يقوى الشهوات ويحيي الأهواء ويدعم النزعات الحسية؛ ولذلك منع بوذا تناول أكثر من وجبة في اليوم على أن يكون الغرض من تناولها حفظ كيان الجسد حتى يتمكن العضو من الاستمرار في جهاده في سبيل الوصول الى النرفانا؛ فمن يأكل أكثر من وجبة في اليوم يكون آثماً.

بعد ذلك انتقل رفاتا الى الموضوع الرابع، وتساءل إذا ما كان يجوز عقد اجتماعات دورية متعددة داخل منطقة واحدة، فأعلن ساباكامين بأن بوذا صرح بأنه لا يجوز إطلاقاً عقد اجتماعات دورية تتلى فيها قائمة الآثام في أماكن متفرقة في نفس الوقت داخل حدود منطقة واحدة، وإنما يجب أن يحدد مكان خاص تعقد فيه مثل هذه الاجتماعات الدورية كل خمسة عشر يوماً. ولقد حرم بوذا ذلك في مواضع كثيرة في فينايا بيتاكا، وأن من يعقد أكثر من اجتماع واحد في منطقة واحدة يأتي فعلاً فيه عصيان لقواعد السلوك التي وضعها بوذا.

أما بخصوص النقطة الخامسة فلقد استفسر رفاتا إذا ما كان يجوز عقد اجتماعات لتقرير أمر يخص الجماعة مثل تعيين عضو جديد دون أن يستكمل عدد الأعضاء بأن يتغيب البعض ثم يبلغ الأعضاء الغائبون نتيجة ما حصل في الاجتماع، فقرر ساباكامين بأن بوذا نبه جماعة كامبا الى خطأ عقد اجتماعات لم يحضر فيها جميع الأعضاء، وبين لهم أن عقد مثل هذه الاجتماعات فيه خروج عن النظم التي تنص عليها لوائح الجماعة البوذية.

وفي السؤال السادس طلب رفاتا تفسيراً إذا ما كان يجوز للطالب أو المريد أن يحاكى مرشده في عاداته وسلوكه ويقلده في مختلف أفعاله معتقداً أن هذه المحاكاة وذلك التقليد يمكنه من اختصار عدد الولادات المستقبلة وتقربه من النرفانا، فأجاب سابا كامين بأن الطالب أو المريد ليس ملزماً بأن يقلد مرشده في شيء من عاداته، وما عليه إلا أن يطيع لوائح قواعد السلوك التي شرعها بوذا، فإذا ما كان سلوك المرشد لا يتعارض مع ما سنه بوذا من شرائع فليس في محاكاة سلوكه إثم، أما إذا خالف سلوكه شريعة بوذا يخطئ من يقلد مرشده.

وتعرض السؤال السابع لمشكلة تناول اللبن الآخذ في التخثر دون أن يخض فقرر سابا كامين بأنه لا يجوز إلا شرب اللبن الحليب فقط فإذا انتاب الحليب أي تغير وحتى قبل أن يتخثر تمام التخثر يجب الامتناع عن تناوله كما صرح بذلك بوذا في مدينة سافاتهى ويأثم من يتناوله.

بينما السؤال الثامن يتعلق بجواز شرب السوائل الآخذة في التخمر، فأخبر سابا كامين المجتمعين بأن بوذا حرم شرب مثل هذه السوائل وهو في كوشامى، ولذلك فمن يشربها يأثم إثم من يشرب المسكرات.

وأيد سابا كامين اعتراض رفاتا على الاشكال التاسع الخاص بالجلوس على قطعة من القماش المزركش والمهدب، إذ لا يجوز الجلوس على مثل هذا القماش ويأثم من يستخدمه في الجلوس.

وأخيراً انتهى النقاش الى الاشكال العاشر سبب الاختلاف بين ياسا وجماعة فيشالي وهو الاشكال الخاص بامتلاك الذهب والفضة، فقرر سابا كامين بأن تعاليم بوذا صريحة في هذا الموضوع، فهي لا تسمح إطلاقاً لعضو من الأعضاء أن يمتلك ذهباً أو فضة، ولقد تعددت أقوال بوذا بخصوص تحريم امتلاكها، ولذلك كل من يحتفظ بذهب أو فضة فهو آثم وخارج على شريعة بوذا.

بعد أن وافق الأعضاء الثمانية على رفض كل ادعاءات جماعة فيشالي خرجوا الى بقية الأعضاء في غابة فاليكا وسأل رفاتا سابا كامين أمامهم في جميع المسائل المختلف عليها فأجاب بنفس الاجابات السابقة؛ وبعد ذلك أقر السبعمائة عضواً رفضها وتأييد ياسا. وبعد الانتهاء من حسم هذا النزاع أخذ الجميع في تلاوة فينايا بيتاكا ثم انشاد سوتا بيتاكا. وكان القصد من ذلك هو مراجعة أقوال بوذا مراجعة دقيقة وتحديد النصوص الصحيحة لتعاليم بوذا الحقيقية، ولم يكتف الأعضاء بالتلاوة بل أخذوا في شرحها والتعليق عليها، كما أوجزوها في مختصرات سهلة تحدد معالمها الرئيسية، وأخيراً ضافوا اليها كل ما ذكر في هذا الاجتماع والأسباب التي حفزت على عقده.

ومع ذلك لم تستسلم جماعة فيشالي لياسا ورفاتا ولم ترضخ للهزيمة وتقبل قرارات هذا الاجتماع، وأخذوا بدورهم يجمعون المؤيدين لوجهة نظرهم بخصوص العشر نقاط، فالتف حولهم ما يقرب من عشرة آلاف عضو، وكونوا فرقة جديدة سميت "ماها نجهيكا" عقدت اجتماعاً آخر

تليت فيه فينابا بيتاكا وسوتا بيتاكا بعد أن حرفتا حسب أهوائهم وغيرنا حتى تتمشيا مع أدعته من ادعاءات. ولقد حضر هذا الاجتماع جميع الأعضاء المؤيدين وعددهم عشرة آلاف عضو ولذلك سمى اجتماعهم بالاجتماع الكبير نظراً لعظم عددهم. ولقد اعتبر ياسا ورفاتا أعضاء هذا الاجتماع منحرفين عن الطريق السوى وخارجين عن تعاليم بوذا.

ويبدوا من هذا الخلاف أنه اختلاف لا يتناول أسس التعاليم البوذية من بعيد أو قريب، ويشمل فروع العقيدة وشكليات الدين. ولكنه يدل على أن الديانات الفيدية والبراهمانية بدأت في تسربها الى التعاليم البوذية، وأنها نجحت في غرس بذور التفرقة بين أعضائها. وقد يوحى هذا الخلاف بأن هناك ضرباً من التنافس بين أتباع بوذا على أيهم أعمق فيهما وأكثر إطلاعاً على تعاليم بوذا، أو بأن هناك نوعاً من التنافس على الزعامة الروحية أدى الى عناد كان سبباً رئيسياً في هذا الانقسام.

ولقد كان هذا الانقسام بداية انقسامات أخرى أتت بعدها وأخذت تكثر مع مرور الأيام، وشجع عليها الديانات الأخرى المحلية التي أخذت تدس تعاليمها في ثنايا البوذية حتى تضاربت فيها الآراء وتعارضت، وأصبح بوذا شخصية إلهية وهو الذي لم يقبل أن يعترف بوجود إله. فلا نعجب إذا بلغ عدد الفرق البوذية في عهد الملك آشوكا هو ثماني عشرة فرقة.

ولما أعجب الملك آشوكا بتعاليم بوذا لم يكتف بأن يعتنقها بل رأى أنه من الواجب عليه أن يدعو لها ويجعل منها الدين الرسمي للدولة، فأخذ

يحض مواطنيه على الايمان بها. فأقبل الهنود على البوذية حتى انتشرت بينهم انتشاراً واسعاً، فكان عهده عصر البوذية الذهبي في الهند. ولكن هذه الدعوة العامة للدخول في البوذية لم تخل من ضرر، فلقد كان من بين من آمن بها كثيرون يجهلون جهلاً تاماً كما يتعلق بأصولها، وأدعى بعضهم بأنهم علماء مطلعون على أسرارها طمعاً في التقرب لآشوكا أو كسب الحظوة عنده ونيل العطايا منه. فانتشر أدعياء العلم بالبوذية في البلاد مما دعا الى ظهور كثير من التعاليم التي هي أبعد ما تكون عن البوذية مما عرضها للشك والريبة. هذا فضلاً عن أن كثيراً من الادعياء كانوا يعيشون في بذخ ورفاهية، ويدلون بأقوال على أنها أقوال بوذا بينما بوذا منها برئ، ويطالبون الناس باتباع السلوك الفاضل بينما هم يسيرون حسب هواهم وسلوكهم أبعد ما يكون عن طريق بوذا.

ولذلك فكر آشوكا –وهو البوذي الحريص على سلامة تعاليم بوذا– في أن يعقد اجتماعا عاما على نمط الاجتماعين السابقين، قصد من ورائه أن يظهر الجماعة البوذية من الادعياء الذين يجهلون طريق بوذا، ويخلص تعاليم بوذا من البذع وكل ما هو دخيل عليها. فدعا الى عقد اجتماع عام– وضع على رأسه "تيسا" ابن موجاللانى أعظم مريدى بوذا– في العام الثامن عشر من حكمه أي بعد الاجتماع الثاني بحوالي مائة وثمانية عشر عاما في عاصمة ملكه بالاليبوبترا وهى مدينة باتنا الحالية.

وقبل أن يعقد الاجتماع امتحن آشوكا جميع أعضاء الجماعة البوذية في ذلك الوقت، وأبعد عنها كل من ثبت جهله بتعاليم بوذا وكل الادعياء

المشاغبين الذين يحدثون الانقسامات والحزازات داخل الجماعة بما يضعونه من تعاليم ويأتونه من أفعال تخالف ما قاله بوذا ويدعون أنها من أقوال بوذا. ثم اختار آشوكا "تيسا" أقدم أعضاء الجماعة في سلك البوذية على أن يكون رئيساً للاجتماع من بين الأعضاء الذين اجتازوا الاختبار ونجحوا في اظهار معرفتهم بتعاليم بوذا. وكان عدد الأعضاء المثقفين ثقافة كاملة وملمين إلماماً تاماً بشتى نواحي البوذيين وحافظين حفظاً واعياً لكتب بوذا هو ألف عضو. ولقد اجتمع هؤلاء الأعضاء في غابة آشوكا لمدة تسعة أشهر أو عشرة أشهر تحت رعاية آشوكا نفسه.

وفي هذا الاجتماع نقحت تعاليم بوذا من كل ما هو دخيل عليها، وتليت فيه فينايا بيتاكا الخاصة بالسلوك، وسوتا بيتاكا الخاصة بالعقائد، كما تليت "أبهيدهاما بيتاكا" (Abhidhamma-Pitaka) الخاصة بفلسفة العقائد: رئيس الاجتماع الأول قد تلاها بنفسه ولكن لم يرد ذكرها في الاجتماع الثاني، ثم تليت في الاجتماع الثالث هذا.

وتشمل "أبهيدهاما بيتاكا" بعض أجزاء سوتا بيتاكا خصوصاً أهم أقسامها الفلسفية "دهامابادا" (Dhammapada) التي تلاها أناندا في الاجتماع الأول كما تليت في الاجتماع الثاني. وذلك يوحى بأن أعضاء الاجتماع الثالث قد أعادوا تقسيم الكتب البوذية، وفصلوا بعض الأقسام عن سوتا بيتاكا وكونوا منها أبهيدهاما بيتاكا بعد أن أضافوا اليها كتباً أخرى كان قد جمعها تلاميذ بوذا بعد وفاته عن بوذا نفسه وعن مريديه الأوائل

كما أضاف اليها تيسا رئيس الاجتماع الثالث كتاباً من تأليفه دحض فيه كثيراً من النظريات التي ظهرت لتعارض تعاليم بوذا.

ومن ذلك الحين انقسمت كتب بوذا الى ثلاثة أقسام بعد أن كانت مكونة من قسمين في أول الأمر. والأقسام الثلاثة هي: فينايا بيتاكا: السلوك، سوتا بيتاكا: العقائد، أبهيدهاما بيتاكا: فلسفة العقائد.

ولم يكتف آشوكا بعقد هذا الاجتماع لتنقية تعاليم بوذا من كل البدع الدخيلة عليها وابعاد كل مدعى بمعرفة البوذية عن حظيرة الجماعة، وإنما أسس كذلك وزارة جديدة سماها "وزارة العدل والدين" كانت مهمتها المحافظة على نقاء الدين البوذى من ناحية ونشر التعاليم البوذية من ناحية أخرى لا في مختلف الولايات الهندية وإنما في خارج الهند كذلك. كما أقام كثيراً من الأعمدة الصخرية التي نقش عليها منشورات دينية تضم أركان الدين البوذي الرئيسية، ووضعت هذه الأعمدة في طول البلاد وعرضها حتى تكون تعاليم بوذا ماثلة أمام الأعين حاضرة في الأذهان على الدوام تحث على الإيمان بها في كل وقت ومكان. ولقد أقام آشوكا حوالي ثمانين ألف ضريح لبوذا في جميع أنحاء البلاد وأشاد استراحات لا عدد لها. فلا نعجب إذا ما انتشرت البوذية في الهند وكان لها الحظوة والسلطان في عهد آشوكا لأن عهده كان يتسم بالتسامح والحرية والازدهار والتقدم.

هذا فضلاً عن أن آشوكا عما على تنفيذ وصية بوذا لمريديه بضرورة الاستمرار في نشر التعاليم البوذية في كل مكان، فأرسل البعثات التبشيرية

خارج الهند الى جميع البلاد التي من بينها مصر وسوريا. ولعل أهم بعثة أرسلها هي البعثة التي أرسلها الى سيلان وعلى رأسها ابنه "ما هندا" لأنها عملت على نشر البوذية في سيلان ومنها انتقلت الى بورما وسيام وكمبوديا، وكذلك الى جاوة التي انتقلت منها البوذية الى جزيرتي بالى وسومطرة. كما كان من نتائج بعثة سيلان أن دونت تعاليم بوذا فيما بعد في سيلان في عهد الملك "فاتا جامانى" حاكم سيلان في نهاية القرن الأول قبل الميلاد. ودونت فينايا بيتاكا وسوتا بيتاكا وأبهيدهاما بيتاكا في صورة الحوار بلغة أشبه ما تكون بلغة سكان مملكة ما جادها وهى اللغة البالية.

ولم يرسل آشوكا بعثات بوذية الى البلاد التي تقع في غرب الهند وجنوبها فقط وإنما أرسل بعثات الى البلاد التي تقع في شمال الهند كذلك. فوصلت بعثات الى كشمير والتبت. ومن كشمير انتقلت البوذية الى التركستان، ومن التبت دخلت البوذية بلاد الصين ومنغوليا، ومن الصين وصلت الى كوريا ومن كوريا الى اليابان.

وما أن خرجت البوذية من الهند واعتنقها كثير من سكان أقطار الشرق الأقصى حتى أخذت تتسرب اليها تعاليم هذه الأقطار من ناحية، وتتأثر بديانات الهند المحلية من ناحية أخرى مما أدى الى ظهور عشرات المذاهب البوذية أشهرها ثمانية عشر مذهباً. ويظن أن الملك التتاري "كانيشكا"–الذي اعتنق البوذية ويحكم امبراطورية تمتد من أفغانستان الى البنجاب– دعا الى عقد اجتماع– لا يوجد ما يجزم بعقده– للجماعة البوذية قبل نهاية القرن الأول الميلادي. وكان كانيشكا يهدف من وراء هذا

الاجتماع أن ينظم تعاليم بوذا تنظيماً جديداً بحيث يوفق بين الفرق البوذية المختلفة التي أخذت تتعارض بقوة تضعف من هيبة الديانات البوذية.

ولقد حضر هذا الاجتماع أعضاء كثيرون من مختلف البلاد التي انتشرت فيها البوذية– على الخصوص الصين والتبت– حتى زاد عددهم عن خمسمائة عضواً. ونظراً لأن الرغبة كانت أن يكون عدد الأعضاء هو خمسمائة فقط مثل أعضاء الاجتماع، فلقد اختير أربعمائة وتسع وتسعون مرشداً ونقص عضو آخر نظراً لعدم وجود أي مرشد آخر، فاختبر "فاسوميترا" بالرغم من أنه لم يصبح مرشداً بعد لأنه أظهر كرامة عجيبة جعلته لا بأن يكون جديراً بعضوية هذا الاجتماع فقط بل يكون على رأسه كذلك. ولقد قام المجتمعون بارشاد فاسوميترا بعمل ثلاثة تعليقات على فينايا بيتاكا وسوتا بيتاكا وأبهيدهاما بيتاكا روعي فيها حصر الخلافات بين الفرق البوذية في أضيق نطاق ممكن، ثم أمر الملك كانيشكا بحفر هذه التعليقات على ألواح من النحاس، ووضعها في ضريح خاص.

ولم يعترف المجتمعون إلا بفرقتين رئيسيتين: الأولى فرقة "هينايانا" ومعناها الطريق الأصغر، والثانية هي فرقة "ماهايانا" ومعناها الطريق الأعظم. وكلتا الفرقتين تعتمدان على تعاليم بوذا الأساسية؛ إلا أن هينايانا أكثر إخلاصاً لتعاليم بوذا الأولى، بينما لا تتفق ماهايانا في أن جهاد العضو لا يجب أن يتوقف عندما يصير مستنيراً وإنما يجب أن تستمر حتى تعم الاستنارة جميع البشر وينتشر الخير في كل مكان، وأن المستنير عالم بكل شيء فهو أشبه ما يكون بالإله ولذلك يستحق التقديس والعبادة،

وأن هذا التقديس وتلك العبادة تساعد العضو على بلوغ الاستنارة وتحقيق النرفانا وهذا يوحى بأن ماهايانا قد تأثرت تأثراً كبيراً بالديانات الهندوكية التي تتعدد فيها الآلهة المعبودة، لأن بوذا نفسه لم يقر بوجود أي نوع من الآلهة فكيف يقبل أن يكون هو أو أي مستنير آخر إلهاً يعبد ويقدس....!؟

وبينما أخذت الخلافات تشتد بين الفرق البوذية مع مرور الزمن، كانت الديانات الفيدية والبرهمانية آخذة في التطور حتى أصبح لها كهانة قوية أسست الديانة الهندوكية، التي عملت على القضاء على البوذية في الهند، بأن صهرت التعاليم البوذية في بوتقة الهندوكية وجعلت من بوذا إلهاً من بين الآلهة الهندوكية. فأصبح لا يميز عامة الشعب بين البوذية والهندوكية، فأقبل الناس على الهندوكية لأنها دين الدولة الرسمي التي في يدها مقاليد القوة والسلطان، ولأنها تؤمن بإله يعبد وتعتقد بوجود روح للإنسان. فلم يأت القرن السابع الميلادي حتى فقدت البوذية مركزها الممتاز وزعامتها الدينية في الهند، وأصبح للهندوكية السلطة الأولى إذ لم يسمح كهنة الهندوكية بأن يكون للبوذية أي نوع من النفوذ في البلاد.

وإذا لم يكن للهند فضل في تدوين تعاليم بوذا لأن الكتابة لم تكن منتشرة بين الهنود في عهد بوذا وكان الفضل في تدوينها لسيلان، فإن الفضل لسيلان كذلك في انتشار البوذية في ربوع بلاد الشرق الأقصى؛ إذ بينما كان نجم البوذية آخذ في الأفول في الهند كانت البوذية سريعة الانتشار.

أقطار جنوب شرق آسيا وشرقها دون أن يعوقها عائق بل كانت تمتص جميع الديانات المحلية وتظهرها في قالب البوذية بخلاف الحال في الهند الموطن الأصلي الذي نبعت منه البوذية.

وهكذا تعرض البوذيون في الهند بعد أن أقل نجم البوذية الى كثير من الاضطهاد. وإن لم يقف البوذيون مكتوفي وكثيراً ما كانوا يدخلون في نقاش حاد مع الهندوكيين، إلا أنهم لم يكونوا يشعروا بالاستقرار والاطمئنان على حريتهم الدينية، إذ كان يجبر الكثير منهم على الإيمان بالهندوكية. وكان أكثر ما يضايق أتباع بوذا من الديانة الهندوكية ما تعتنقه من تفرقة طبقية لأنها كانت تنادى بنظام الطوائف الذي يقسم الهنود الى أربعة أقسام: البراهمة والكشاتريا والفيسيا والسودرا، ولذلك كان ينفر البوذيون من الديانة الهندوكية لأن البوذية لا تفرق بين شخص وآخر إلا بالجهد الصالح الذي يبذله في سبيل بلوغ النرفانا.

ولما دخل الاسلام الهند هدمت الحروب ما تبقى للبوذيين من معابد واستراحات وأضرحة، فتفرق شملهم وقضى على وجودهم كهيئة دينية كبرى في الهند. ومع ذلك كان من أوائل الهنود الذين أقبلوا على الاسلام هم البوذيون لأنهم وجدوا في الاسلام تسامحاً ومساواة وآخاء لجميع البشر، وعرفوا أنه لا يفرق بين شخص وآخر إلا بالتقوى.

أهم المراجع

المراجع العامة

History of Philosophy Eastern and Western, Edited by Sarvepalli Radhakrishnan.

The Wonder that was India, by A. L. Basham.

Philosophies of India, by Heinrich Zimmer.

Ancient India and Indian Civilization, by Paul Masson- Oursel.

The Essentials of Indian Philosophy, by M. Hiriyanna.

The Legacy of India, Edited by G. T. Garratt.

Buddhism, by T. W. Rhys Davids.

A Manuel of Buddhism, by Mrs. Rhys Davids.

Outline of Buddhism, by C.H.S. Ward.

Buddhism, by Christmas Humphreys.

The Popular Life of Buddha, by Arthur Lillie.

The Teaching of the Compassionate Buddha, Edited by E. A. Burtt.

History of Buddhist Thought, by Edward J. Thomas.

Kindred Sayings on Buddhism, by Mrs. Rhys Davids.

The Buddha's Way of Virtue, translated by W.D.C. Wagiswara and K. J. Saundres.

مراجع: الفصل الأول

مراجع: الفصل الثاني

The Life of Buddha, by Asvagosha Bodhisattva. Ttanslated from Sanscrii into Chinese by Dharmaraksha A. D. 420. Translated from Chinese into English by Samuel Beal.

The Light of Asia, by Sir Edwin Arnold.

The Vedantic Buddhism of the Buddha, translated from the original Pali by J. G. Jennings.

مراجع: الفصل الثالث

مراجع: الفصل الرابع

The Vedantic Buddhism of the Buddha, translated by J. G. Jennings.

Early Buddhist Scriptures, translated by Edward J. Thomas.

The Dhamapada, translated from Pali by F. Max Muller.

Buddhist Birth Stories, translated from Pali b T.W. Rhys Davids.

The Sutta Nipata, translated from Pali by V. Fausboll.

مراجع: الفصل الخامس

مراجع: الفصل السادس

مراجع: الفصل السابع

The Vedantic Buddhism of the Buddha.

The Book of the Discipline (Vinaya Pitaka) translated from Pali by I. B. Horner.

Early Buddhist Scriptures.

مراجع: الفصل الثامن

The Vedantic Buddhism of the Buddha.

The Book of the Discipline.

The Life of Buddha, by Asvagosha Bodhisattva.

مراجع: الفصل التاسع

The Vedantic Buddhism of the Buddha.

The Book of the discipline

History of Buddhist Thought, by Eward J. Thomas.

The Introduction to the Dhammapada, by F. Max Muller.

الفهرس